

محمد عباس

أنات وتر مشدود







قصص



قصص

أنّات وتر مشدود

محمد عباس على



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٣

كتابات جديدة

مراسم قتل الصمت

أرسل المستشفى خطابًا إلى البيت.

تسلمت الخطاب بصفتى الأخ الأصغر للمريض..

كانت بداخله كلمتان لا غير.. صالح مات!

وضعته فى جيبى، وسرت إلى الأمام. أوقفنى طفل من أطفال الحارة التى نسكن فيها.

سألنى: كيف حال عم صالح؟

لحظتها شعرت بفداحة الخسارة وقسوتها .. وبكيت!!

●

حينما أنهيت إلى أمه الخبر، احتقن وجهها بالدماء. غالبت بركانًا من المشاعر يجتاحها .. غير أن عينيها كانت ترميان بالحمم. تصرخان بكل ما أبت أن تفرج عنه الشفاه. ظلت تغالب نفسها زمنًا، ثم لم تستطع الاستمرار، فأخذت تطلق آهات مكتومة.. تبعها نشيج، أخذ يتدرج فى الارتفاع، إلى أن انطلق لسانها :

- هو الذى تبرأ منكم.. ومضى!

تقصدنى وإخوتى.

لم أشأ الرد عليها. ولم أكن أملك الرد. إذ كنت أراه أمامى أينما وليت وجهى، ببسمته الواثقة، وعينيه الهادئتين، بحدقتيهما اللامعتين.

دائما كانت تشدنى حدقتاه، بلمعتهما التى تشد الانتباه. وكذلك كلماته المتحمسة القوية التى لا تعرف الخفوت بنبراته الواضحة، وحسن نطقه للحروف، وإحاطته علمًا بما حوله، كأنه خلق ليعلم، ويعلّم من حوله، ولا يبخل على أحد بما لديه. بل ربما لأنه يشعر بداخله أنه كبير، كان يعطف على كل من يراه. يفيض حنانًا على الصغير والكبير. لا يغضب، ولا يثور ولا حتى يرد بعنف. كل ما كان يفعله أن تزداد لمعة عينيه، وتزداد ابتسامته رحابة، ويفيض نهر جدبه بكلماته السمحة، أو صمته المديد.

صرخت فى وجهى:

- أضعتموه بجهلكم

كلماتها تقطر دمعًا على الفقيد. مددت يدى أضمها إلى صدرى. أزاحتها بقسوة، وأشاحت بوجهها وهى تواصل النشيج.

همست وأنا أركز عينى فى عينيها:

- هل كان بيدنا شىء؟

أدارت وجهها عنى ولم ترد.

تركتها إلى الطريق.

●

قال أبوه حينما ذهبت إليه فى المقهى:

- كنت أرجوه ليوم قادم

أردت أن أقول.. «نحن أيضًا أبناؤك» .. غير أن شعورًا بالتقازم ملكنى، حين أردت مقارنة نفسى به. أدرت وجهى فى أنحاء المكان. الصخب يحتل المقاعد والأركان، والدخان ركام فوق الرؤوس.

عدت إليه يجلس وحده فى ركن قصى. يتجمل بالصمت. عيناه ساكنتان. فيهما دمع يتأرجح على الحدقتين.

هززت رأسى.. ما جدوى البكاء؟

لاحت لعينى عينا صالح.. كيف لم أعرفه كما ينبغى؟

همست متسائلاً: كيف دخل المستشفى؟

كان صامتًا، وكان الصمت الساكن ملامحه أبلغ حديث استمعت إليه.

ارتفعت أصوات اللاعبين من حولنا. أشاح بيده وهو يدير رأسه فيهم. «هم هكذا .. أصواتهم عالية.. حتى فى اللعب.

وهبّ واقفًا

مضى أمامى إلى طريق الكورنيش، حيث حديث الرياح، وصرخات الموج، وأبواب السماء المفتوحة على مصراعيها.

كان الصيادون على الرمال يرتقون شباكهم، بينما مراكبهم الصغيرة إما تتأرجح على الموج، أو تسكن أحضان الرمال.

ظللت سائرًا إلى جواره. محترمًا صمته. منتظرًا أن يتكلم حين يريد.

أخيرًا استدار إلىّ :

- على هذا الشاطئ كان أخوك يسير.. عائدًا إلى البيت.. قادمًا من المدرسة التى يعمل بها.. حينما لاحقته عربة التليفزيون.

انتبهت حواسى أكثر.

كان صوته منخفضًا.. هامسًا.. كأنما يحادث نفسه. خشيت أن أطلب منه رفع صوته قليلاً، فاقطع عليه استرساله. اكمل:

- تركت العربة الصيادين.. والمارة.. وتركت المتابعين والمشاهدين.. وكل أصناف البشر.. وقصدته هو. قال للمذيع اللحوح.. «لا أريد الزيف»

سأله المذيع.. لماذا؟

رد عليه: - لكم دنياكم.

ألح المذيع: برنامجنا نوع جديد من البرامج.. يعتمد على تلقائية الضيف ورؤياه.. نقد.. تشجيع .. شجب.. إلخ.

يقول ما يشاء فى حدود العرف طبعًا

صمم صالح: لى دنياى

اندفعت أقاطع والدى:

- ولماذا رفض صالح الحوار؟

حدق فى عينى طويلاً. رمادية حدقتاه المنطفئتى الوميض، وقسماته التى تكرمشت أسفل العينين، وفوق الخدود لجمتنى.

أشاح بيده أخيرًا، وقال كأنما يحادث نفسه:

- ربما كان يشعر بما سيجرى!

وأكمل:

- كان الناس قد اجتمعوا. فوجئ صالح بهم ينضمون للمذيع، ويلحّون عليه .. لفت الجمع انتباه رجال الأمن.. حاصروا المكان. عرفوا السبب.. انضموا للمذيع والناس.. اضطر أن يمسك بالميكروفون

قاطعته سائلاً: وماذا قال؟

لم يأبه لى. أكمل كأنه لم يسمع سؤالى:

- أمسك الميكروفون. قال للجميع:

«رغم كل شىء لن أتكلم»

وانقلبت الدنيا فوق رأس التليفزيون، والبرنامج، والمذيع.. لماذا لم يتكلم؟ واجتمعت لجان .. وقيلت آراء.

وفى النهاية صدر قرار .. «لم يتكلم لأنه معارض.. حاقد.. رافض لتقدم وحرية الوطن»

اندفعت مقاطعًا أبى:

- لأنه لم يتكلم.. أصبح متهمًا؟!!

ضحك والدى بغم

كان الرزاز المتطاير يصدم وجوهنا، ورائحة اليود العتيدة - التى اختفت زمنًا - تبعث من جديد، وعلى استحياء فى أنوفنا.

توقف ليحدق فى عينى وأمسك يكتفى هامسًا:

- قالوا إنه سيعلّم الناس الصمت. وبالتالى لن تعرفه السلطة شيئًا عما يفكرون فيه.

لم أفهم ما يعنى. أو ربما فهمت ولم أسلم من العجب: اندفع تساؤل إلى طرف لسانى:

- وهل هذه جريمة؟

ارتفع صوته ليختلط بهدير البحر، وصخب الأمواج، ويندفع سابحًا إلى رحابة السماء:

- تم القبض عليه.

لكن القبض عليه سيصوره بطلاً. إذن لابد من تصرف سريع. وحدث ما يريدون.

●

ذهبت إلى مستشفى المعمورة للأمراض النفسية والعصبية. كان والدى معى.

لم أكن أعرف عنها إلا ما يتناقله الناس، من أنها مأوى المجانين.

كان الطريق إليها مرصوفًا، والعمارات المرتفعة تنشأ من حولها، والمنطقة تتعمر.

المستشفى نفسها هادئة. ولم أر عند دخولى ووالدى إلا عيونًا تحمل تساؤلات.

أطلعنا المسئول هناك على الجثة.

أدار أبى وجهه رغمًا عنه

أما أنا فقد اندفعت أحدق فى الوجه السابح فى ملكوت الموت.

مددت يدى أتحسس قسماته. رغم برودة جسده شعرت كأنه تيار كهربى أصابنى. تيار كهربى سرى من قسماته عبر أطراف أصابعى، ليغمر جسدى كله وشعرت بخلاياى تتبدل، وبلا تدخل منى أو رغبة رأيتنى أتشبع به، أشعر بتدفق روحه فى مسامى، وعبر أوردتى وشراييني، وأنا أحدق فى ملامحه، ولا أملك أن أرفع يدى عن قسماته.

جـــذوة

(١)

آه يا خليل

كن كما لم تحلم من قبل. هذا ما جنته يداك. أنت والأقدار ستظلان هكذا إلى ما شاء الله.

ألم تعرف أنك ستذوق الندم، ترى تقلّب الأيام، وتذكر ما مضى كأنه حلم ذهب عنك؟

(٢)

آه يا خليل

مضت عنك «سعاد» التى بعت من أجلها الكون. مضت عنك دون حتى أن تداري إهمالها لك.

أتذكر يا خليل كيف واجهت «حميدة» زوجتك، كيف قلت لها أن سعاد ملجأك الأخير وملاذك من لفح تعاسة أيامك، وأنها مأواك من برودة الوحدة وحرارة العجز؟

لحظتها نظرت حميدة إليك مليًا. رأيت فى عينيها دموع حسرة تأبى الظهور أمامك.. حاولت الهدوء ما وسعها وهى تحادثك.

- إذا كنت لا تفكر فىّ فهذا ليس مشكلة. لكنها حليلة جارك

- سأطلقها منه

ابتسمت لك برثاء. لن تؤذى إلا نفسك. ومضت عنك تركتها أنت إلى سعاد. دخلت إليها كما كنت تدخل من قبل. مدرس يعلم صغارها الآداب. بينما!!!

المشكلة أن هذا الوضع كان يضايقك يا خليل. تشكو لها منه. تطلب منها أن تتلاقيا بعيدًا عن البيت، وعن العيون الصغيرة المترقبة .. ترفض هذا. تقول لك أن المكان الوحيد الآمن هو شقتها. وكنت صاغرًا تصدقها يا خليل. الرجل زوجها كان مسالمًا معك. يراك والدًا فاضلاً له ولزوجته، يقتطع من وقته من أجل الصغار، من أجل الجيرة يعلمهم بلا أجر. لم يكن يعرف أنك كثيرًا ما تدفع أنت!

حتى كانت المرة التى تنمرت لك فيها. قالت إن زوجتك علا صوتها. حميدة تعاركت معها. افتعلت مشاجرة معها لتقاطعها وتمنعك عنها. لحظتها استمعت إليها ذاهلاً. حميدة تطعنك فى ظهرك، تدمر سعادتك!!

هى تعرف أنك لم تقربها منذ سنوات. انفصلتما سلميًا بلا أى اتفاق سوى الصمت. أنت امتنعت وهى أبت أن تطلب. فماذا تريد منك الآن؟ انهمرت الدموع من عينيك. محال أن تكون غيرة. هذه العجوز تغار!

ومـاذا تريد منى بالضـبط؟ اللحظات القليلة التى أشعـر فيـها بذاتى سرقتها!! الأحاسيس الرقيقة.. المرأة الدافئة .. الرحيق الطازج.. النشوة الفريدة. تريد تحطيم كل هذا، لِم؟

هل تنتظر منى شيئًا بعد هذه السنوات؟

أخذت ترجو سعاد. تعتذر لها. تقبل يدها. ساعتها أفقت لنفسك لحظة. انتبهت وأشرف ابنها يدخل عليكما ليعرض عليك سؤال.. ما هذا الذى أفعله؟... شخص آخر داخلك شعرت به. أخذ صورتك ووصل به الهوان أن يركع بين يديها لكى ترضى. لم تتخيل أن تكون أنت وهو شىء واحد. بكيت.

(٣)

آه يا خليل

ماذا فعلت بحميدة زوجتك، أعماك الغضب إلى هذا الحد؟

منذ سنوات بعيدة لم تمد يدك إليها بسوء. منذ انفصلتما جسديًا وكل منكما يعامل الآخر بحذر، يعرف أن الأمر بينكما أوهى من أن يتحمل أزمة ما تعبر الأفق، فما الذى جرى؟

تلقيتها بالصفعات. ارتدت إلى الخلف. نظرت بقوة إليك. تحملت صفعة .. صمتت الثانية. وفى الثالثة امتدت يدها لأعلى. أمسكت بذراعك فى الهواء. شددت يدك وأنت لا تكف عن السباب. شددت بقوة.. بكل ما فيك من عزم. حدقت فى عينيها. فى حبتى عينيها. عجز قاهر جرفك أمامها. لم تنخفض نظرتها كما كانت من قبل. تراجعت

نظراتك عنها. هزال شديد أصابك فى الصميم. شعرت برعب مفاجئ من حدة النظرات ومن قبضة اليد الناشبة أصابعها فى لحم يدك.. المرأة الصامتة، الهادئة، العجوز تتنمر لك؟.. مذعورًا صرخت. بصقت فى وجهها. زاد ضغط أصابعها.. تجمع الأولاد ، نظرتهم الصامتة زادت من مساحة الحيرة والارتباك لديك. ينظرون بلا احترام .. بلا خوف. لم يعد هناك إلا رثاء لك. حدقت فيهم ماذا تريدون، ماذا يريد كل العالم؟ طالعك الرفض النابض فى الأحداق . لم تهتم .. إلى الجحيم كل شىء عدا ما أريد.. ترك هذه المرأة معناه الموت. إنها طوق نجاة جاء فى وقته عطاء جاء فى وقت جدب. معها شعرت أننى رجل من جديد. شعرت برحيق الرغبة، بلهفة الحنين. يكفى أنها علمتنى فى هذه السن الحب. ما قيمة المركز، المال، الأبناء بدون هذا؟ حميدة زوجتى عاشت معى. شاركتنى الحياة. أنجبت الأولاد. لكنها كانت موظفة برتبة زوجة. لم تعطنى مثل سعاد

أنت الآن فى أشد الحاجة لهذا العطاء يا خليل. لا.. لا.. لا يمكن أن تضيع منك بسبب امرأة مثل حميدة. صرخت فيها.. أخرجى من بيتى. وأشرت إلى الباب. ارتفع صوت هادىء يقول لك لا. ارتعدت فرائصك وأنت تنصت للكلمة. تنظر إلى الوجوه. لأول مرة يعلو صوتهم. يتحدثون أمامك.. يتحدون إرادتك. أولادك هؤلاء أم أولاد من؟

- ماما لن تترك البيت

صرخت منهزمًا

- أتركه أنا.

ودفعت الباب فى عنف. مضيت وأنت تقسم على عدم العودة، تصر الا يروا قرشًا واحدًا منك بعد الآن، تفكر كيف تعلمهم الأدب جزاء ما صنعوا بك ومعك.

(٤)

آه يا خليل

لماذا لا يفهمون دوافعك؟

العمر الطويل الذى تسرب من بين يديك. لماذا يرفضون أن تلحق بقطرات منه. أيام ترتاح فيها. ترى فيها الحنان. تشعر بالدفء .. تزتوى من السعادة. ألا يكفى ما أعطيت، ربيت، علمت، كبرت؟ حميدة بالذات ماذا يهمها منك؟

يكفيها أنك أبقيت عليها طيلة هذه السنوات رغم زهدك فيها .. هى تعرف جيدًا أنك لا ترغبها. لا تحس بها. تعرف أنك حاولت أن ترضيها لكنك عجزت. فقدت قدرتك بين ساقيها. رضى كل منكما بالأمر الواقع. حبس مشاعره داخله وعاش. فما الذى جرى الآن؟ أنت التى جنيتِ على نفسك يا حميدة. لن تبقى على ذمتى بعد اليوم. هرولت إلى سعاد تبلّغها البشرى.. هرولت إليها بحرمان العمر. بشوق ولهفة فوق ما يحتمل قلبك الكهل. دققت الباب. فتحت لك. رأيت على وجهها تعبيرًا أفزعك. سأطلق حميدة. ظل الوجه جامدًا .. ليس لى دخل بهذا .. اطلبى الطلاق لنتزوج. حدقت فى عينيك . بجفاء ردت.. لن أترك زوجى. صرخت سعاد. لم تبال بك. أرادت إغلاق الباب.. تضرعت إليها .. ادخل لنتفاهم بنفس الجفاء ردت. زوجى أمرنى ألا أدخلك الشقة فى غيابه. وأغلق

الباب فى وجهك مذعورًا . ضائعًا وقفت تحاول استيعاب ما قيل. ثم فجأة عدت تدق الباب.. تدق بعنف. لم تذكر أن هناك أناس حولكما. لم تذكر أن هناك زوجة وأبناء لك فى نفس البيت. كل ما كان فى رأسك هو المرأة سعاد بكل ما يعنى هذا. حتى حينما بدأت تهبط السلم كفأر مذعور دموعه تغطى عينيه، لم يكن بكاؤك إلا حسرة على امرأة تضيع من بين يديك.

مضيت فى الطريق يا خليل تائه. غريب تبحث فى نفسك عن نفسك.

لا شىء إلا سراب!

(٥)

آه يا خليل

عدت إلى ركنك المهجور. وحيدًا إلا من شقاء. تنظر إلى الجدران صامتًا .. حائرًا.. مذهولاً. لا تدرى إن كنت تفكر أم لا. تنظر.. لا تنظر. نائم .. مستيقظ .. حلم. كابوس. عقلك ذاته غائب عنك. دموعك دون وعى تنزف. تريد أن تعرف ما الذى جرى، لماذا اتغيرت سعاد؟ لماذا؟ أكيد حميدة لها دخل فى هذا. لماذا يا حميدة؟ ورفعت رأسك .. مسحت عينيك. رأيتها أمامك. لم تصدق نفسك. بحلقت فيها .. حدقت فى وجهها. رأيتها تتقدم منك. ابتعدت أنت. ماذا تريدين .. أردت أن تصرخ فيها. تثور كعادتك. لم تستطع. تراجعت عنها. تراجعت. أوقفك الجدار. كانت عيناها هادئتين. وجهها يحمل طيبته وسكونه. رغم هذا تجسد فى عينيك خوفك منها.. انكمشت أمامها.

جئت لتشمتى بى.. اشمتى كما تريدين. الخسارة ليست جديدة علىّ الشقاء عرفته وحدى. مرارة الوحدة والبرودة شربتها وحدى. حتى الانكسار الآن أمامك أتجرعه وحدى.

عادة تقترب منك. عيناها حانيتان. انكمشت أكثر.. ابتعدى عنى .. أنت تكرهينى. ظلت تقترب. أعرف أننى أخطأت، لكن ليس بيدى! مدت يديها إلى كتفيك. أريد إنقاذ ما تبقى من عمرى. أحاطتك بهما. الجذوة الباقية لا أريد لها أن تنطفئ.. ضمتك إلى صدرها.. حميدة.. أنا تعبان.. تعبان. حميدة!!!

تشعر بالبرودة فجأة.. تشعر بوحشة، بخوف. تدور بعينين مذعورتين فى المكان. حميدة!.. لقد كانت هنا.. الآن.. كانت تضمنى بيديها .. حميدة!!

تقوم من مكانك. فراغ وقهر يحيطان بأنفاسك، نصال من صمت تنغرز فى صدرك. تهرول إلى النافذة. تفتحها.. العالم من حولك يدور. يمرح. يتلألأ بالضياء، وأنت وحدك هنا.. الظلمة تحيط بك.. تملأ حياتك.. تتغلغل عبر أنفاسك. والقهر يقيدك .. أنت مقهور يا خليل. مقهور وسعاد هناك. أكيد ستجد آخر. صغيرًا عنك. أجمل منك وأقوى منك. يمنح بلا خوف. شبابه سيمنحه القوة. يعطيها ما تريد.

بينما أنت هنا.. تلوك القهر.. تتنفس الهزيمة والعار.

لا

تصرخ من أعماقك

صورتها وهى بين ذراعى الآخر تتجسد لك. تملأ عينيك. صوتها وهى معه.. تناجيه. تتأوه له.. تنفذ إلى أذنيك لا .. لا

تدور فى الشقة. تبحث عن مهرب

تطاردك سعاد.. صوتها يتعقبك

ترى النافذة المفتوحة .. تهرول إليها.. تتضخم التأوهات المتمتمة ، الجسد الريان يتعطش للآخر.. يحتويه .. لا.. تميل بجسدك للأمام. يعلو غنج سعاد.. تغمض عينيك. تندفع للأمام أكثر.. تتواصل التأوهات.. ينفتح الفضاء الفسيح بجسدك.. تشق صرخة مقهورة قلب الليل .. آاا...ه.

والجسد يهوى ويهوى

بعدها يسود الهدوء كل شىء.

أصـــوات مـــن زجـــاج

استدار إلى المرآة ملاقيًا جسده.

ساتر معه من أسفل قدميه إلى قمة رأسه.

حدق فى الرأس.. شعيرات بيضاء تكسوها.. وصلعة فى المنتصف تلتمع تحت الضوء.

هبط قليلاً إلى العود النحيل داخل البيجامة البيضاء، نحافته ظاهرة.. تشد الانتباه.

ارتفع لأعلى.. تلاقت العيون بنفسها عبر المرآة.. هالة من سواد أسفل الجفون، التى تضم أحداقًا بهت لونها من كثرة الاستعمال.

كانت الرسالة فى يده ما تزال.

عاد يغمس فى سواد كلماتها نظراته.. مراقبًا مسار الحروف وتعرجاتها وتكويناتها المختلفة.

تقول الأبحاث والدين والعادات أن الإنسان نافع فى حياته.

هذه الرسالة تقول وبعد وفاته أيضا!!

دار حول نفسه.. ماذا سيفعلون بهذا الجسد؟

●

يقود عربته نحو المستشفى.

العربة تسير ببطء عكس بقية الأيام. تتأمل الشوارع والطرقات والأجساد، تتأملهم بعمق يدور عبدالرحمن بنظراته فى وجوه الناس، وأبدال البنايات، وأحشاء الطرق. هى أيضًا جميعًا تدقق النظر إليه - تحدثه

- قل رأيك.. تكلم يا دكتور.. الرسالة تطالبك أن تتبنى الموضوع.. تقدمه للناس.. تحببهم فيه

يدير رأسه هربًا من وجه ما.. يحاصره وجه آخر .. يفلت منه إلى بناية يتأملها.. يتعقبه طريق،

قل رأيك يا دكتور.

يهز رأسه ببطء

- معنى أن أحببهم فى شىء أن أقنعهم أولاً. أقنعهم بجدواه. بمنفعته. بعدم تعارضه مع مبادىء وقيم وعادات عاشوا معها.

ولكى أفعل هذا لابد أن أقتنع أنا أولاً

لكن!!

تصرخ إشارة المرور في وجهه.. لكن ماذا؟

تحاصره الأبنية والوجوه والطريق .. لكن ماذا؟.. يشعر بها جميعًا تضغط العربة.. تضغطها وتضغطه معها.. يقاوم التقزم والانغلاق والإشارات الحمراء.. يتمكن منه الجهد .. يفتح الباب محاولاً الإفلات .. يهرول مبتعدًا عن العربات المتراصة والوجوه والأبنية.. يهرول.. يهرول. غير أنه يتوقف مرة واحدة وهو يرى أجسامًا صغيرة تقترب منه.. تحيط به.. تحاصره.

تقترب الأجسام .. تجحظ عيناه وهو يرى أجسادًا آدمية تتفكك أمامه.. تتحلل إلى أجزاء تسير وتنبض بالحياة.. قلوب تتحرك.. أكباد تقفز.. عيون تطير وكلى تتهادى.. تقترب كلها منه - يقف وسط الجمع دون حراك بينما الكل يتزاحم حوله.. يحكم الحصار عليه.

يشعر بالعجز عن الحركة.. يدير نظراته حوله.. تصرخ إشارة المرور في عينيه ثانية.. يضغط دواسة البنزين تحت قدمه بقوة.

تنطلق العربة للأمام.

●

قالت أحلام وهي ترفع شعرها خصلات، تلف كلاً منها على بكلات، تثبتها على رأسها عن طريق بنس سوداء اللون. كان وجهها سائحًا على سطح المرآة، تعلوه ظلال متباينة الألوان. قالت وهي تزاول عملها بروتينية:

- هل لهذا علاقة بالدين؟

- هو ركن هام فيه

- والأركان الأخرى ؟

حدق فى وجهها المصلوب على سطح المرآة. عيناها ذابلتان.. فقدتا لمعة الأمس..لم يعد لهما إلا تغضنات أسفل الجفون. همس:

- المنطق.. التقاليد

انتهت من رأسها.. رفعت منديلاً تربطها به وهى تعترض

- وهل المنطق يقول أن نترك مريضاً يموت ونحن نملك علاجه؟

ارتفع صوته متسائلاً:

- بقتل إنسان آخر؟

- لن نقتل سليماً

- من يضمن هذا؟

ألم تسمعى عن الكلى التى تباع؟

غدًا سنرى قلبًا يباع وعينًا تباع.. إلخ

أشاحت بيدها

- ممكن.. قد يستغل بعض الفقراء هذا.

قال بنبرة ساخرة:

- وقد تسرق

- تسرق؟

رد وهو يولى وجهه شطر الحائط:

- كما تسرق الكلى اليوم !!

●

ترى أحلام أن طموح العلم ليس له حد. مادامت الأبواب قد فتحت فلا بد من خوض التجربة. زرع الأعضاء فى الأجسام (ما دمنا نستطيعه) من الضعف أن تقول من أين ولماذا. هذا ليس عمل الأطباء. ثم إن الأخلاق ليس لها دور هنا. مع احترامها الشديد لها. فهذا علم يعود بالفائدة على المرضى. ثم إن هذا الذى يرفض نقل الأعضاء اليوم قد يمرض غداً، ويرجو ويتوسل أن يتم استبدال عضو سليم بعضوه المصاب. ذلك هو العلم وتلك هى مهمته. بالضبط مثل موضوع الاستنساخ، والذين يحذرون من تنفيذه على البشر. لا تعرف أحلام كيف يفكرون. إنها فائدة عظيمة أن يبقى العلماء والمفكرون والأفذاذ أبداً بيننا. فائدة للبشرية لا توصف. لماذا نضيعها وتحت أى مسمى نضع رفضنا؟

تتجه بعينيها عبر المرآة نحوه

- الحى أبقى من الميت

لا يرد عليها.. ترى أنه ابتعد مسافة عنها.

تتركه إلى حيث تعالج بشرتها من أثر المساحيق.

أما هو: فيمسك الرسالة فى يده. الغريب أنهم اختاروه هو ليرأس

جلسـات المؤتمر. يكون هو الواجـهـة التى تطلب من الناس التـبـرع بأجسادهم بعد الموت. ومن يملك جسده ليتصرف فيه؟ الخوف أن هذا الأمر إذا انتشر سيفتح الباب لسرقة الأعضاء من أى جسد بشرى، حى أو ميت يمكن الحصول عليه أو سرقته. وبالطبع سيكون الضحية غير مدرك لما يراد به. أى أن الأمر سيكون جريمة مقنعة بقناع العلم. يدير رأسه متحفزًا إلى أحلام. ترتطم نظراته بمرآة السراحة. تتسع حدقتاه وهو يرى زجاجها يلتمع أمامه كشاشة، يرى من خلالها أولاده طارق ونجوى وأحلام معهم، يتحلقون حول سرير يرقد عليه جسد، وجهه تائه فى ضباب شفيف، لا يكاد يبين المرئيات. ينتبه لصوت طارق يهمس بآلية: يا حبيبى يا بابا ينتبه لنجوى تقول بذات النبرة المحايدة:

- يا حبيبى يا بابا

يتجه بعينيه إلى أحلام الواقفة تنظر فى صمت. تهتز النبضات فزعة فى صدره وهو ينصت إلى نبرات صوتها، ومخارج الحروف وطريقة النطق.

- لا تتركنا يا عبدالرحمن

يرى كائنًا جديدًا يدخل الصورة أمامه، لابسًا معطفًا أبيض اللون، وقد تدلت على صدره سماعة طبية، وإن كان وجهه غائبًا - أيضا - خلف بحيرة من ضباب رمادى اللون، يلون المرئيات حوله.

يوجه حديثه إلى أحلام:

- خلاص؟

ترد وهى ترسل طرفها إلى زوجها فى مرقده

- لا .

- المفروض أن العملية تتم فى وقت محدد .

نجوى عندها الكلى. لازم نأخذها من الوالد فى حالة جيدة

وأنت يا طارق عين والدك اليمنى التى ستأخذها . أريدها بحالة طيبة

وأنت يا دكتورة أحلام عندك القلب.

قلب زوجك لا بد أن ينقل فورًا إليك.

تقول أحلام والحيرة تأكل حدقتيها :

- والعمل يا دكتور؟

يرد بقوة: نبدأ الآن

- لكنه فى غيبوبة

- هو ميت حاليًا . موت المخ

يعلو صوت طارق بصورة آلية: يا حبيبى يا بابا

تحاول نجوى أن تبكى

وتقول أحلام بهدوء: خلاص ، ابدأ

يمتد المشرط إلى الجسد .. تزداد الصورة ضبابية ويمتلئ فضاؤها بالسواد .. يمتد المشرط من البطن منطلقًا إلى أول الرقبة .

يخرج الطبيب القلب. هذا لك يا دكتورة

تحمله فى حرص وتمضى.

تمتد يده إلى الكلى.. وهذه لك يا نجوى

تلقفها وتهرول

يشد العين ويمدها إلى طارق الذى يأخذها برفق ويمضى.

لا

يهب عبدالرحمن من رقدته صارخًا

تتناثر الصور والمرئيات ذرات فى الهواء.

يجلس محاولاً تمالك أعصابه، وهو يستعيذ بالله ويعاود الرجوع إلى المرآة، باحثًا عن الأصوات الزجاجية

ينتبه لأحلام إلى جواره ممتقعة اللون

وطارق ونجوى يكسو وجوههم الذعر

يحدق فى وجوههم ليتأكد من تعبيرات العيون.

وحقيقة المشاعر

يستمع إلى الكلمات بإنصات. يتفحص الأصوات.

تسأل أحلام: ما بك؟

تقبض يده على الرسالة. تضغطها أصابعه بقوة وهو يقول: أنا بخير!

حصـــار

فتحت الباب.. رأيته واقفًا أمامه.. عيناه براقتان .. بريقهما يومض فى العتمة.. حادًا .. منذرًا بالويل.. بينما تجسد هيكله سوادًا، أشد كثافة من سواد الليل.

ارتفعت زمجرة هزت الكون من حولى.. رأيت السكون يتفتت.. وتدافعت دقات قلبى. تراجعت إلى الوراء. مغلقًا الباب بسرعة وبعنف .. بعدها ارتميت وراءه التقط أنفاسى. لحظات.. وعدت أنظر من شق بالباب.. أحدق وسط العتمة باحثًا عنه.. محاولاً إيهام نفسى أن الأمر لم يكن أكثر من خداع بصر، وأنه ليس هناك شئ.

غير أننى - ومن خلال الشق - رأيته كما رأيته من قبل. واقفًا وسط الحارة .. أمام الباب.. عاقدًا ذراعيه فوق صدره.. كل ذراع تبدو لعينى منتفخة العضلات .. فوق صدر مرتفع - تعلوه رقبة غليظة .. تحمل وجهًا أغلظ.. والوجه يحمل عينين يبرق فيهما الشرر.

كانت عيناه باتجاه الباب.. ينتظر فرصة لإظهار شراسته.

انطلق صفير حاد .. استطال بضع ثوان. تحرك على أثره موغلاً فى قلب الظلمة. فى أعماق الحارة. بين البيوت الغافية على الجانبين. متجهًا إلى مصدر الصوت.

●

انصبّت نظرات الجيران علىّ.. رأيتها تحوطنى .. تصنع سياجًا من حولى وأنا أقف على سطح البيت. أدركت سببها حينما رأيته يقف - ما زال - أمام الباب.

كانت الشمس لهيبًا يستعر فوق الرءوس .. ضياء ينبض فى العيون. تلفّت حولى.. بلغت به الجرأة ألا يحتمى بظلام الليل. وظل واقفًا حتى أثناء النهار!

تأججت النيران فى صدرى. رمقته من أعلى السطح. الغريب أنه لا يتكلم. أو لا يريد الكلام. لا يفعل شيئًا سوى الزمجرة، وإنزال ذراعيه عن قبة صدره، والتقدم نحوى كلما رأى وجهى.. ولا يعطينى الفرصة لمعرفة ماذا يريد ولماذا يفعل هذا وقفت مكانى أحاول الهرب من سياج الحيرة الذى يحيطنى. الجلوس هكذا لن يجدى.. لا بد أن أجد وسيلة للخروج.

ومضت فى رأسى خاطرة.

هناك منافذ أخرى للبيت. أخرج منها .. بعدها أستطيع إدراك ما خفى علىّ مضيت إلى شباك الردهة المطل على جانب الطريق.. دفعت دفتيه للخارج.. انتفض رجل آخر مزمجرًا.. من ذات الطراز السابق .. بعد أن كان واقفًا ساكنًا تحت أشعة الشمس.. أسرعت بإغلاق الشباك

وهرولت إلى حجرة النوم.. هالنى أن هناك ثالث! انقض علىّ شلال من فزع.

على مرأى ومسمع من النهار وعيونه المفتوحة وآذانه المصغية يحيطون بالبيت هكذا!

الأمر وراءه شيء لا أفهمه.

ثم إن هؤلاء الرجال ذوى الأصوات المبهمة والعيون المتحجرة لم أرهم من قبل.

من الذى حرضهم، وما هو هدفه؟

صعدت الدرجات القليلة الموصلة إلى السطح .. صمت متوتر يسود الأجواء.. رأيت عيونًا متلصصة تطل من خلف النوافذ والأبواب.. عيون حذرة ترقب.. تنتظر.

انتفضت عروقى عجبًا.

ماذا تنتظرون؟

ظلت النوافذ والأبواب مفتوحة بالكاد. ولم يرد علىّ أحد.

شعرت بصدرى يغلى.

●

الليل تسود ظلمته. تفترش الطرقات. وتحلق على أسطح البيوت.

بحثت عن القمر. المفروض أنه أتم استدارته الليلة. لم أجده.

افترشت الأرض وعينى على السماء. ها هى الليلة الثالثة تمر دون أن يقترب أحد من البيت .. لم يفكر أحدهم في السؤال عليّ.

كيف أتصرف؟

أحرقت النيران صدرى.

قمت واقفًا. اندفعت إلى المطبخ. حملت السكين وهرولت قاصدًا الباب.

لكننى توقفت. إنها أقل من أن تفى بالغرض.

تراجعت أحمل نظرات منكسرة.

لحظات واتجهت إلى عصا غليظة أتحسسها .. الحّ علىّ سؤال .. هل تفيد عصا مع هؤلاء؟

ألقيتها ساخطًا ووقفت أعيد التفكير.

ومضت فى رأسى فكرة .. هرولت على أثرها إلى الداخل. سحبت بندقية والدى القديمة من غلافها القماشى السميك الذى يعلوه التراب. اختبرت حركتها. ارتفع النبض فى صدى هادرًا. عمّرتها. تدفقت الدماء فى عروقى مزغردة. وانطلقت عائدًا إلى السطح. أخذت السلالم القليلة وثبًا وأنا أبتسم للقمر الذى شق حجاب الغمام. مضيت حذرًا إلى أن حددت موقع الرجل الواقف أمام الباب. كان ما يزال عاقدًا ذراعيه فوق قبة صدره. يتربص بالباب فى إصرار .. بدا تحت الضوء الفضى وحشا خرافيًا بجسده الضخم وعينيه الناريتين.

رفعت البندقية إلى كتفى وأنا أتساءل كيف يحمل كل هذا الحقد، ولماذا؟

شعرت بالعيون المتلصصة من وراء الأبواب والنوافذ وهى تتوقد. تشتعل نظراتها ترقبًا.. ازددت إصرارًا على الفعل. حددت الهدف. الهدف الرأس الضخم. تحفزت للضرب. انطلق الصفير من جديد.

انزلقت البندقية عن كتفى فى قنوط.

●

فكرت أن أنتهز الفرصة بعد الصفير وأترك البيت.. أخرج إلى حيث أشاء.. إلى حيث أستطيع تدبر الأمر.. انطلقت نحو الباب. فاجأنى خاطر جديد. قد يكون هدفهم البيت.. يعطونك الفرصة للفرار للاستيلاء عليه. أتتركه وتمضى، ومن الذى سيخرجهم منه إن دخلوه؟

انقبضت النبضات فى صدرى. ورأيتنى أطالع الأركان والأثاث والفرش.. أحدق فيهم .. أغرس نظراتى فى كل جزء منهم.

انطلقت الصرخة: لا

ومضيت إلى السطح.

جهزت البندقية .. حددت الهدف.. انطلقت الرصاصة نحو الرأس. رأيت عينى الرجل تبرقان وهو يحدق نحوى ويفتح فمه مندهشًا لأنه لم يرنى. بينما جسده يدور حول نفسه.. بعدها ارتمى أرضًا بلا حراك.

أخذ صمت مقبض يفترش المكان.. صمت طال حتى ضقت به.. لم أشعر فى حياتى بالحاجة للضوضاء مثل الآن.

وقفت أنتظر أن يحدث شيء. أى شيء. ظل المشهد صامتًا ساكنًا إلا من دماء تتساقط بغزارة من الرأس الملتحم بالرأس.

مرة واحدة وكما لو أننى أفقت مرة واحدة من لحظات شرود أو من إغفاءة قصيرة عهلى صوت عال رأيتنى انتبه لمصاريع النوافذ والأبواب وهى تفتح ولرؤوس تظهر من خلفها وعيون تبرق مهللة.

انتفضت عروقى قوة. أشرت بيدى علامة النصر، ومضيت إلى الجهة الأخرى، أريد آخر وبندقيتى فى يدى.

انطلق الصفير حادًا ومستطيلاً أكثر من ذى قبل.

●

أخذ رجل جديد مكان الذى مضى.

وظل الأمر على ما هو عليه. زاد حجم القلق فى صدرى. لا بد أن أجد حلاً.

مضت أفكارى إلى العيون المتراصة خلف النوافذ والأبواب.. إننى ألمح فيها الاهتمام.. التعاطف إلى درجة التوحد.

إذا استصرختهم قد يتحركون.

فاجأنى شعور مقبض.. ولماذا لم يتحركوا قبلاً؟

بدأت أدور وسط الدار وصمت قلق يدور معى.

انتبهت لضجيج يعلو خلف الباب.

رأيت حركة استنفار للرجال المحيطين بالمنزل. تقدمت أصوات

الأقدام وارتفعت الزمجرة.

حملت البندقية على كتفى..

شددت عليها بقوة وإصبعى على الزناد ووقفت وسط الردهة.

اهتز بابى بعنف.

كـان لدّى أمل أن تدرك العـيـون المتـراصـة .. المتلصـصـة .. الأمر.

تستوعب الموقف جيداً

وأن تتحرك قبل فوات الأوان.

الجُــــرم

مضت العربة عاتية متذمرة.

يتسع لها الطريق لتمضى، وتوسع لها السيارات لتمر، بينما البك العابس الوجه بجوار السائق يرمق المارة من علٍ.

كان الغطاء مثقوبًا .. متسع الثقوب.. والهواء باردًا.. ينفذ من خلالها كالإبر المسننة إلى وجه فاطمة بعنف.. هابطًا من أعلى منغرزًا فى خلايا وجهها... يلسعها مثل لسع النخل ويمضى، ليعود من جديد.

تلتقط أذناها أصوات بكاء خافت، وأنات متناثرة.. تدير عينيها محاولة - عبر الظلمة - أن تلم بالوجوه من حولها. فى ظلام العربة تتبعثر الوجوه.. تضيع .. لا تبقى إلا أجساد واجفة يحمل كل منها رعبه داخله.. ينتظر ما هو آتٍ على يد ذلك الرجل العابس الوجه، ورجاله الذين يسدون الباب بأجسادهم.

- يا له يا بنت. انت وهى.

تنتبه للرجال وقد توقفت العربة يأمرون من فيها بالنزول. يدق قلبها بقوة. تحبس دموعها بالكاد.. يجتاحها شعور أنها تقترب من مجهول

رهيب. لأول مرة يحدث لها هذا .. تنظر إلى من حولها.. ترقب الوجوه.. تتابع نظرات العيون.. تحاول أن تستوعب ما الذى يجرى بالضبط، ولماذا يجرى. كل مرة كانت الأصوات تتهامس

- الإزالة .. الإزالة

تهب من مكانها خلف النسوة.. تحمل أوعيتها وبضاعتها.. ويهربن وراء الرجال إلى الأزقة والحوارى المحيطة بالشارع الكبير ترقب أعينها الموقف.. تسأل لماذا يهربن، وما هو الجرم الذى تطاردهن من أجله هذه الإزالة؟ يتحلقن حولها، ويتضاحكن .. تتندر الألسنة بكلماتها. يحكين لها عن هذه الإزالة القاسية التى تطارد الباعة، وهم يفترشون أرصفة الشارع الكبير. تسأل بجد: لم؟ يرد لسان عابث لأنها تريد البضاعة التى يحملوها لنفسها.. تعاود السؤال باهتمام: ألا تشبع؟ ويستمر الحوار حتى يهدأ الموقف تمامًا ويعود كل إلى مكانه.

اليوم اقتحم الجند الأزقة والحوارى.. جمعوا ما وصلت إليه أيديهم.. سألت أحدهم: ماذا فعلت؟

دفعها إلى العربة البوكس دون جواب

بينما البك العابس الوجه يقف عاقدًا ذراعيه على صدره، منتظرًا امتلاء الصندوق! تهطل الدموع من مآقيها.

تتقدم نحو الباب. تتنبه لرجل كالح الوجه يحادى الجمع فاردًا ذراعيه، بصدغه الغليظ، ورقبته القصيرة المدكوكة أعلى قفصه الصدرى.. تتجه إليه:

- أنا لم أفعل شيئًا

يفتح فمه بصراخ متعالٍ آمرًا إياها أن تسرع.. أولادى بالبيت وحدهم. لن يعرف أحدهم ماذا جرى لى. ثم الطشت والبضاعة التى لم أبع منها شيئًا.. كلها حملوها على عربة نقل كبيرة، وساروا بها مع غيرها من البضائع. هل كل هذا ستأخذه الإزالة؟

ما حجمها لتأخذ كل هذا الطعام فى يوم واحد؟ رفعت عينيها لأعلى. أخذت نظراتها تلهث زاحفة على درجات سلم القسم.

توقفت قدماها رغمًا عنها.. إلى أين سيأخذوننى؟ شعرت بصفعة هائلة على قفاها، أطارتها من الأرض لتقذف بها بعيدًا. ارتطمت ببلاط السلم بعنف، وانبثقت الدماء مخلوطة بصوت الرجل الغليظ الصدغين.

- قلت اتحركى يا بنت الـ....؟

استدارت بجسدها النحيل، بجلبابها الكستور الزرعى اللون الممتلئ بالدماء إليه وهى تتحسس الجرح بيدها.

صرخ فيها دون أن يأبه لدمائها:

- اتحركى يا بنت الـ...!

حدقت فى عينيه والشرر يطق من عينيها .. أخذوا بضاعتها لإطعام الإزالة التى لا تشبع، وقبضوا عليها لا تدرى لم.. والأولاد وحدهم .. والآن يضربها!

لم تدر بنفسها وهى ترد:

- انت ابن الـ...!

ارتفعت الأعين الكسيرة إليها.. اتسعت الأحداق الذابلة.. لمعت النظرات وتنبهت الحواس.

قالت النسوة البائسات: المرأة جنت..

تشتم الرجل الكالح الوجه هكذا بلا خوف.. تشتمهم فى دارهم!!

قالت إحداهن لنفسها: انتهت فاطمة .

همس أحد الرجال الباعة لزميل:

- فى الشارع نهرب من طريقهم.

تجىء هى هنا لتشتمهم.. فى القسم!!

أشار له زميله إلى رأسها النازف. أشاح بيده:

- ولو .

سأل أفندى - يحمل كاميرا على كتفه - شده المنظر فوقف يتابعه:

- ماذا فعلت هذه المرأة؟

همسوا له بما جرى.

أخذ يلتقط الصور.. صوّر الرجل القصير الرقبة الغليظ الصدغين وهو يندفع نحوها.. يده الغليظة تمتد إلى رأسها.. الرأس الصغيرة تحاول التملص من يده.. تنحصر بدمائها بين أصابعه.. داخل كفه.. تقسو ملامحه .. تبرق عيناه .. ترتفع اليد الأخرى. الكاميرا تتابعها وهى

تشق الهواء، هابطة بشعرها الكثيف، بالذراع الغليظة الطويلة العريضة، بالكف الثقيلة، ترتطم بالوجه الصغير النازف. تفلت اليد الأخرى الوجه لحظة الارتطام. يهتز عنيفًا . تتطاير الدماء منه. تتناثر على الوجوه الصامتة، والصدور المرتعبة، والأعين المخزية. دماء ساخنة تلسع الأبدان.

بينما الجرح ما يزال ينزف.. والكاميرا تدور.. تقوم المرأة مستندة على ذراعها اليمنى.. رافعة وجهها لأعلى.. محدقة في الوجه الغليظ.. مطلقة صوتها باللعنات.

صوتًا باكيًا لكنه قوى.. يلعن فى شدة ويشتم بلا خوف.

تزداد ملامح الرجل توترًا.. يتقدم حذاءه الغليظ نحوها فى حدة. يرتفع لأعلى استعداداً لسحقها .. رغمًا عنها تخفض رأسها وتغمض عينيها.

تفك السنة النسوة من قيدها، فتصرخ هلعًا وتضرب الريح أجساد الرجال بعنف.

يطول انتظار فاطمة للحظة القادمة، التى سيطيح فيها الحذاء الغاشم برأسها.. يكسر ضلوعها .. أو يحطم عظامها.

غير أنه لا يحدث شىء.

بريبة وحذر تفتح نصف عين. تراه واقفًا ذليلاً بين يدى الرجل العابس الوجه. واضعًا ذراعيه إلى جانبيه باستسلام.

تهب من جلستها:

- هذا الرجل.......

يزمجر الوجه العابس مقاطعًا ، تبتلع كلماتها رغمًا عنها. تربط رأسها بطرحتها بعد أن كبسوا لها الجرح بقليل من تراب الأرض.. تتحرك وسط الجمع إلى الحجز.

أغلق الباب خلفها.. وقفت لا تدرك من أمرها شيئًا.. روائح متباينة رغمًا عنها تدخل أنفها.. أصوات بكاء خافت وآنات مستكينة تخترق سمعها.. تدير نظرات حولها.. النور أصفر نحيل، مغسول بالسواد. ترى بالكاد فيه ملامح الوجوه، بينما برودة البلاط، أسنة تشق الأقدام، والحوائط عارية متشققة تكسوها رطوبة قاسية.. أيضًا الأرائك المسندة إلى الجدران تسكنها الحشرات.

تهمس لجارتها: أين نحن الآن؟

يرتفع صوت البكاء.

●

أمام باب الحجز رأت بعض الرجال يقفون .. أجسادهم مديدة وملابسهم سوداء.. همست إحداهن فى أذنها أنهم ضباط.. أصابها الرعب.. انتهيت يا فاطمة. جاء وقت القصاص.. الرجل الغليظ الوجه سلط الرجل العابس، الذى سلط بدوره هؤلاء عليك.. ليتك ما أتيت هذا السوق، ولا أغضبت الإزالة، ولا رفعت صوتك بالسباب. لماذا تكلمت؟ ضريك.. احتمى.. نفذى ما يريد لتسلمى .. هذا جزاء من يتكلم..

نظرت إلى الملابس السوداء والوجوه المحدقة بحيرة. أشار إليها أحدهم بالخروج هى أيام معدودة التى خرجت فيها إلى السوق.. بعد

موت الزوج أردت تربية الأولاد وحدى.. حملت البضاعة من الجبن والبيض والسمن والفطير .. وسعيت مع الساعيات. أبيع ما لدى وأعود لبيتى. أعطى الأولاد مصروف المدارس. أرى البيت.. اطمئن لحسن رعايتهم لأنفسهم فى غيبتى.. وأمام التليفزيون وأنا أشاهد تمثيلية السابعة مساء يسقط رأسى على صدرى.

تتسع عيناها لتشمل الجمع حولها.

يصل إلى أذنيها الأمر الجديد بالتقدم

يدفعها الجزع للتقهقر إلى الخلف

ترتطم بأجساد معششة فى الحجز

تدفعها الأيدى للأمام.. تتقدم وقلبها يواصل ارتجافه .. ترى الرجل العابس الوجه .. بجواره الرجل صاحب الكاميرا وجريدة فى يده. الجريدة بها صورتها والدماء تغطى وجهها، وصورتها والرجل الغليظ الوجه يصفعها .. تفتح فمها .. يظل الفم مفتوحًا دون كلام.

بينما الحشد يدفعونها أمامهم

ويسيرون!!

أنـــات وتـــر مشـــدود

حتمًا سوف يختلف الأمر كثيرًا عن ذى قبل.

ستـرى الأرض، والجـدران، والسـمـاء، والأرض، بألوان لم تكن لهـا، وستشعر أن ذلك الهواء، فى ذلك المكان، له طعم متغير. طعم مشبع بتلك المشاعر، التى أتت بك إلى هنا، لتجلس إلى تلك الجدران، التى توسـمها الرطوبة بميسمها، وتترك عليها وسـمها هنا وهناك، تنظر وتتأمل، وتسحب مقعدًا من المقاعد، تجده باردًا متجمد الأطراف. تمسكه بيدك، وتشعر أنه يلين لك، ينعطف ناحيتك، وكأنما تسرى فيه الكهرباء، يبدأ فى نبذ البرودة ليستدفئ بسخونة ملمسك له.

اجلس يا محمود.

لا تنظر إلى التراب الساكن فوق الأركان، وعلى الفرش، ويمتطى الأرض. ولا تبالى برائحة العطن أو الهواء المسلوب الإرادة، الذى يستكين هنا بين الجدران.

لا تبالى بكل هذا. فقط افتح النافذة هكذا، ودع المصباح الكهربى فى غفوته، وتسربل بالظلمة، وكفن مشاعرك بالسكون. لا تفكر . دع التفكير

الآن واغمس نفسك وكينونتك ووجودك فى كينونة ووجود المكان. ليس عيبًا أن تصير جزءًا منه. مقعدًا .. مائدة .. أو حتى ذرة تراب متناثرة هنا أو هناك. أو ربما نسمة هواء، تسبح فى جو المكان، تتنسم رائحة الذين مضوا .. رحلوا .. ولم يعد لهم وجود.

آه.. منذ متى لم تأت إلى هنا يا محمود؟

على الأقل لتجديد الهواء، والجلوس بين يدى مقاعد، وفرش، أطلت ذات يوم على أهل.

أرح ظهرك يا محمود.

امدد قدميك وارفع رأسك لأعلى. على هدى ضوء أحد المصابيح، المتسرب إلى الحجرة عبر النافذة، حدق فى السقف. راقب الخطوط والتعرجات المنحدرة هنا وهناك، وآثار الطلاء الزائل، والرطوبة المتوغلة وعينى هشام الذى ترك البيت ومضى.

هشام!!

تنتفض من مكانك مباغتًا. تعاود الجلوس ثانية، وأنت تهمس بضعف، أنك لن تعاود التفكير فى شىء. حتى أنعام لن تفكر فيها. أنت لم تأت إلى هنا - بيتك الأول - لتفكر بل لتأخذ أجازة من التفكير.

تغمض عينيك.

لن أفكر الآن.. الآن.. لن أفكر .. تتنبه لصوت أقدام أليفة لأذنيك. تنظر باتجاهها. تراه أباك قادمًا، عبر الممر الفاصل بين الردهة التى تجلس فيها، وحجرات النوم، عيناه تحملان أطنانًا من غضب: -

- ما زالت هنا؟

تحاول أن تتذكر غلطتك.. ماذا فعلت ليقابلك هكذا؟.. تدور بعينيك باحثًا عن مغيث.. ترى أمك بهيجة قادمة خلف أبيك، تحاول - كما اعتادت - أن تهدىء ثورته. دون جدوى. نظرت إلى عينيه المشربتين بالحزم.. عم طلعت البقال الذى خرج من رابعة ابتدائى الذى يكتب اسمه بالكاد، ويفتخر أمام الأقران أنه ما يزال يحفظ يس والرحمن، عم طلعت أبوك. يصرخ فيك

- من لا يحترم هذا البيت لا يدخله

تتدخل بهيجة والدتك:

- اسمعه أولاً .. قد يكون له عذره

ترمق الجدران الصماء، والرطوبة التى سرت فى نخاعها، والبرودة التى تشمل الأشياء .. تهمس بالكاد:

- كنت فى بيت محروس زميلى فى الجامعة. تحدثنا مع والده.. حكى لنا عن تقاليد وعادات زمان و...!

يصرخ أبوك مقاطعًا:

- هذا لا يبرر التأخر عن العودة

أفهمت؟

تهز رأسك المحنية على صدرك تهزها مرارًا كأنك تشهد الأرض والتراب والصمت على أنك فهمت.

تلوح لك عينا هشام من جديد.. ولدك الوحيد .. تسأله بهمس:

- هل أنت جانى مع أمك .. أم مجنى عليك؟

تتذكر رسوبه فى مواد عديدة فى نصف العام، وعدم مبالاته بهذا... الشىء الذى يهتز له قلب القلب أنه لا يهتم.. شىء عادى هو بالنسبة له، والمبرر جاهز.. «ما دمت ترفض الدروس.. يصرخ فيك عم طلعت من جديد.. من لا يحترم هذا البيت لا يدخله وبهيجة أمك تطيب خاطره ليعفو عنك. ترفع رأسك متمعنًا فى وجهه:

- أبى .. ما رأيك فيما فعله هشام؟

يشيح بيده: - أنت المخطىء

- كيف؟

- تركته وحده

- أمه معه.. إنها معلمة.. مربية.

- خطأ!

تكسو الحيرة عينيك... كيف؟ .. يرفع صوته مناديًا أمك بهيجة، التى تقبل عبر الممر، فى طرحة بيضاء، تحيط بكهولة قسماتها، ونظراتها الحانية، وفمها المثروم.

تقول بصوت هادىء:

- الولد ترك البيت. نعم. لكنه ذهب لخاله.

ضع نفسك مكانه يا محمود

- يا أمى.. إنه يشترط علىّ.. أما الدروس الخاصة أو السقوط فى

الامتحان.

- وأنعام؟

ترتد نظراتك عن الجدران والرطوبة وخيالات الضوء المتسرب عبر النافذة.. أنعام المدّرسة .. أنعام الأم. تقول أنك من عصر قديم.. تقصد عصرًا حجريًا.. تقول متهمة .. كيف لا تعترف بالدروس الخاصة، الست تعيش بيننا؟

ترد عليها مشفقًا:

- لم نكن نعرفها.

- الكل الآن يعرفها.

- لن تكون سببًا فى نجاحنا

- نريد نجاح أولادنا

- نجاحنا فى صنعهم .. أهم

تزاور برأسها عنك. يعلو صوت أمك لائمًا

- محمود .. ماذا جرى لك؟

تدارى وجهك حرجًا.. تقول بهمس: إنه ابنى!!

وتتوه نظراتك فى طيات الرطوبة، التى تشبعت بها الجدران بينما كلمات أبيك تتردد فى أذنيك:

- من لا يحترم هذا البيت لا يدخله

ويهيجة أمك تقول لك بلطف تطيب خاطرك: أبوك يا محمود كلامه لازم يمشى.

تتجه إلى أنعام الجالسة إلى مكتبها، تعد دروس الغد لطلبتها، دموعها تغسل الأرض والجدران والهواء «أريد ولدى». يتصل أخوها هاتفيًا «الولد عندى لن يعود إلا بشرط». تنتفض أنعام مهرولة إليك. تشد السماعة منك:

- اشرط كما تشاء

- أن يأخذ الولد درسًا خصوصيًا

تصرخ أنت: لا . الولد سيضيع

تؤكد هى: - نعم . سيتم هذا

تضع انعام السماعة.. تسمعها من خلال ضبابة شرود جامح، يجتاح عقلك وكيانك تملى عليك ما تريد

- الولد سيأخذ الدرس. لن تعاقبه

والأفضل ألا تتحدث إليه.

تشعر ببرودة دش مثلج يلسع جسدك. إذا أخذ درسًا اليوم سيظل طوال عمره يسلك هذا السبيل. سيدمن الدرس الخصوصى فى عمله وفى بيته .. لن يسلوه.

تشيح أنعام برأسها ولا تحفل بالرد.

تعود إلى أمك بطرحتها البيضاء ووجهها الذى يفيض بالعطف:

- أبوك يا ولدى.. كلامه لازم يمشى.

تصرخ فى أنعام: - تعالى اسمعى كلام أمى.

يتدخل أبوك الذى يخلع نظارته الطبية ليريح عينيه منها قليلاً . قائلاً.

- ليس بالصراخ يا محمود.

تعود إليه

- ما رأيك يا عم طلعت.. قل لولدك المحامى

وزوجته أنعام

تنتبه أنعام إليكما.. تنظر شذرًا. بعدها تراها تمضى.. تدير ظهرها لك وتمضى . تصرخ خلفها.

- أنعام

يتردد صوتك مشبعًا بالرطوبة بين الجدران. تتطاير أتربة كانت راكدة منذ زمان. بينما يقطع حد الظلمة شعاع قادم من سفر.

تدير عينيك حولك. صمت أخطبوطى الأطراف يحيط بك .. يحتويك .. ويعد عليك أنفاسك.

تقوم متثاقلاً نحو الباب بعد أن تعيد غلق النافذة تهبط السلم الخشبى متمهلاً، مستندًا على الدرابزين الكهل. مع هذا يئن من ثقلك!

تصل أخيرًا إلى باب البيت. تعود بعينيك إلى الوراء هامسًا بالدعاء لأبيك وأمك، وتقرأ الفاتحة ترحمًا عليهما.. بعدها تواجه الطريق والزحام

والليل الممتد بلا حدود.

طبـــة الميـــزان

تابعت حركاته.. كلماته المتحمسة وعينيه الواثقتين. شىء ما فيه يشدنى. تمنيت لو عاد العمر القهقهرى لأنضم إليه. أكون معه. أتكلم بنفس حماسته.

تلاقت عيناى بعينيه على البعد. سألنى من مكانه عن سبب صمتى. تبسمت فى هدوء ولم أرد. درت بعينى فى الوجوه من حولى. عيون متحفزة، أحداقها تلتمع بالعزم، بينما الكلمات تتصارع على الشفاه، تنطلق حادة لا تلتزم بحذر. عدت إليه.. إلى جبهته العالية، وفمه الصغير وذقنه المدببة. لا أعرف كلما نظرت إلى وجهه، لماذا أتذكر النمر. النمر بالذات فى اندفاعه وإقدامه. وكثيرًا ما رأيته وهو يتكلم، وقد نمت أنيابه واستطالت أظفاره واهتزت لمرآة القلوب.. وأحكى له هذا.. يضحك.. يقول يا عم إبراهيم.. أنا حازم ابنك الصغير.. الذى يتعلم منك.

كانت الصالة التى نقف أمام مدخلها داخل المصنع مستطيلة الشكل. واسعة تنتشر الماكينات فى أرجائها. ضوؤها يهبط من لمبات مغموسة فى السقف ليمتزج بالغبار والأتربة والدخان قبل أن يصل إلينا، وإلى يمين

الباب مباشرة نافذة مغلقة المصراعين، إلا من فرجة صغيرة ينفذ منها سهم ضوء.

كشر حازم عن أنيابه: لن نسكت له بعد اليوم

تعالت الأصوات من حوله مؤيدة ومشاركة من مكانى إلى جوار النافذة حيث كنت أرقب الغبار والأتربة السابحين فى سهم الضوء رأيتنى أتلقف خاطرة لا أعرف من أين أتتنى بالضبط.. ماذا لو أتحدث إلى صاحب الشركة مباشرة. أشكو له شاكر بك. أحكى له كيف يتحرش بالعاملين، يعاملهم بطريقة لا تليق بهم. أكيد لحظتها سينظر الرجل إلىّ من وراء نظارته باهتمام.. سيقول لى يا إبراهيم أنت معنا من زمان. وأعرفك لا تكذب ، سأحقق فى الأمر لحظتها سيعرف هولاء الشباب قيمتى. سيعرفون أن صمتى لم يكن ضعفاً ولا انهزامًا. لحظتها سيأخذنى الجميع بالأحضان. أتقدم الصفوف و...!

توقفنى يد من كتفى. أنتبه لعين النمر ترمقنى ويد حازم تهزنى.

- أين ذهبت يا عم إبراهيم؟

أحدق فى عينيه.. اللمعة التى تومض من حدقتيه عاتية. تتدفع الكلمات إلى شفتى:

- يا بنى. لن تفيد الكلمات. لا بد من وقفة نعلن فيها رأينا. يصل صوتنا لمن نريد

يعلو صوت معارض: وهل سيسمعنا؟

يقول آخر: وهل يقتنع أننا على حق؟

يصرخ ثالث: بل نأخذ حقنا بأيدينا

أدور بعينى بينهم، منذ متى لم أتكلم هكذا مثلهم؟ .. لا يعرفون أن صاحب الشركة قد يرفض طلبهم متعللاً بأن شاكر يؤدى عمله.

يرتفع صوتى: يجب أن تصل شكوانا بهدوء. بلا إندفاع يخمش النمر بأظفاره صدرى بقوة.

- ما رأيك فى أن تقدمها نيابة عنا؟

أنظر إليه.. أحدق فى وجهه وهول المفاجأة يفتح فاه ليبتلعنى.. القلب يدق بلا ضابط. أكاد أصرخ لا. لا. أفكر فى الراتب. البيت. العمل الذى قضيت فيه عمرى .. لا. لا. لا أستطيع. يهمس أحدهم فى أذنى:

- أنت كبيرنا وتستطيع التحدث عنا

أستدير إليه. أبحث عن كلمات أقولها، أرفض. أرفض. أعترض، أمتنع. تتوارى الحروف عن مخيلتى. يصرخ شىء فى صدرى.. إياك وأن تخذلهم!

يرتفع صوت أقدام يعرفها الجميع، ويطل وجه شاكر. ينظر إلى الجمع حانقاً. يسأل عن سر وقوفهم هكذا وجهه عابس كالعهد به. ينظر إلينا من علٍ. يحدثنا من طرف لسانه كأنه كائن لا ينتمى إلينا. أتململ فى مكانى. أبحث عن رد مناسب أواجهه به. أهرب من غفوة الصمت التى رانت على القلب. لا أجد. يشتبك الرجل مع العمال. كلمات صاخبة تندفع من الأفواه. لابد أن أتكلم. أواجه. أنا الأولى بهذا. يدق قلبى بعنف محذرًا: من الصعب أن تكون زعيمًا وأنت بحاجة للمال. البيت سيتأثر .

الأولاد. الإحتياجات.. أرقب الحروف من فم لآخر. أدير وجهى من هنا لهناك. تتلاقى عيناى بعينيه. تصطدم النظرات تتعلق ببعضها. تتصارع. يقول ساخرًا:

- وأنت يا إبراهيم. أليس لديك شكوى؟

تتقلب دقات القلب رأسًا على عقب وتتدفق الدماء ساخنة إلى رأسى. أشعر بحرارتها وضغطها داخل جدران جمجمتى. أبحث عن ريقى. تكلم يا إبراهيم .. أتحرك لأقف فى مواجهته.. تصمت الأصوات . تتسع الأعين. تتوارد إلى ذهنى عبارات لا أذكر أين سمعتها:

- شاكر وصاحب الشركة صديقان

- يقال إنهما أقارب

- لا. هما زملاء دراسة

أهز رأسى هربًا من الشرود. بل هو ظالم يجب أن يعرف هذا، ويعرفه صاحب الشركة. أصرخ

- لدّى شكوى.. وسأقولها

يهوى قلبى من حالق.. ماذا تفعل.. قد يرفتك صاحب الشركة .. ماذا تفعل فى هذا السن. تقبع فى بيتك. تطعم أولادك المر والهوان. تعقل.

يرتفع صوته متحديًا: جميل. لم يبق إلا أنت. تفضل أحدق فى عينيه. عيناه عينا ذئب جائع. يتلذذ بمنظر فريسته وهى تنتظر مصيرها. لأننى عامل يستفزنى أنتبه لصوت النمر يعلو مزمجرًا. يقول حازم بقوة:

- أنا معك يا عم إبراهيم

تتدافع الأصوات. تتلاحم. إلى أين تقودوني بالضبط؟.. أخشى أن يقال تجمهر. أشير إليهم. تصرخ دقات قلبي: حذار .. أهز رأسي: التراجع محال يصفق شاكر (ساخرًا):

- أنت المحرض لهم. عال. هات ما لديك

تنطلق سهام الغضب نيرانًا من عيني. لجأ إلى أرخص وسيلة للحوار. التهديد. يعرف أنه الأقوى. الأقدر. الذي يملك القرار. لا مجال للتراجع. أصرخ بقوة.

- لن أشكو لك. بل لصاحب الشركة

يرتفع صوت من خلفي. صوت واضح جلي. أعرفه ويعرفه كل الحضور. ترن نبراته وسط الحشد بعمق وتتغلغل داخلي

- تكلم يا إبراهيم

أستدير إليه. صاحب الشركة!!.. أشعر أن هوة عميقة تفتح فاها لابتلاعي. أترنح في فضاء لا نهائي. ثمن الاندفاع لن يدفعه سواي. أنا الضحية. الكل سيصمت الآن. أحدق في فراغ لا نهائي.. أراني والأولاد نجلس لا نجد الطعام .. «تكلم يا إبراهيم» الأولاد يطلبون الغذاء. يبكون المرأة يدها على خدها. تسأل عن إيجار البيت. فاتورة النور . المياه

- تكلم يا إبراهيم

تتعاقب الوجوه من حولي.

الانتظار يطول. الكل يترقب. مصيرهم صار بيدى أدير رأسى للناحية الأخرى.

كأننى كفة ميزان.

مصير أسرتى أيضًا بيدى.

يعود صوت صاحب الشركة للارتفاع:

- تكلم يا إبراهيم

أرفع رأسى إليه. تتأرجح كفتا الميزان. تتلاقى أعيننا. يفتح تيار الهواء مصراعى النافذة المجاورة بقوة.

يملأ ضوء النهار المكان.

وجـــه النهـــار

وسط الظلمة الهادئة التى تتنفس صمتًا، وخلف عربته الخشبية الصغيرة سار حمدان، جسده الفارع محنى الظهر قليلاً إلى الأمام، وذيل جلبابه الدمّور ذى الخطوط الطولية فى طوق الجلباب، ويداه العفية، الطويلة الأصابع، اليابسة الكفين تسحبان العربة بما عليها من أشياء. قدماه مغروزتان فى أرض طينية، تمتد أمام عينيه، بينما فاطمة زوجته إلى جواره، تسير صامتة شاردة العينين ترمى الظلمة بنظرات كالإبر المسننة لا تهدأ. والعربة تخوض فى الطين، وتصنع عجلاتها ممرات خلاله.

يبذل حمدان جهدًا لتحريك ساقيه. الساقان تتعثران. والحمل ثقيل. يمضى إلى الأمام، جسده يقاوم وهنًا يدب فى أعصاب يديه، وألمًا يدور فى رأسه، والعربة تحفر طريقها ما تزال. يتجه بطرف عينيه إلى فاطمة التى تسير بقوامها المعتدل الريان فى سكون.. «جمالك كان نقمة علينا يا فاطمة!». يواصل السير.

●

ينقش الليل خطوطه على صفحة السماء، بينما العربة تمضى. الرجفة الممتدة بطول قسمات الوجه تزداد سرعة، وأعصاب يديه تقاوم الوهن. والحمل ثقيل.

تشير عليه فاطمة أن يتمهل رفقًا بنفسه. يبتسم لها بفم مغلق وعينين قلقتين. تقف أمامه فى حسم. جسدها الفارع وسط الظلمة يبدو لعينيه أرضًا خصبة بخضرتها وطينها ومائها الزلال. أرضًا حية تنبض حبًا وحنانًا، وتفيض بالخير.. «أبدًا لن أترك أرضى»

- قف يا حمدان

صوتها الهامس فيه حدّه. نظراتها تشع قوة. رغمًا عنه يقف.

- إيه يا فاطمة؟

- الرحيل ليس الحل

تتسع عيناه. هل هذا وقته؟ يصرخ فيها

- والحل أن تذهبى إليه؟

تقول بثقة: - لن أذهب

يشيح بيده.. «تظن الأمر بيدها. بخاطرها ساذجة».

يهمس بحّدة: - سيغصبنا

تتسع عيناها إصرارًا. يشع بريق اليقين: -

- أستطيع أن أحمى نفسى

يدفع العربة بقوة.. «حالمة.. تعيش أوهامها. لا تدرى من هو

عاشور».. تنزاح مرغمة عن طريقه. يكمل السير.

- ولماذا أدفعك للتجربة.

وماذا أفعل ساعتها، أتفرج؟

تشق العربة طريقها وسط الطين، عجلاتها تصنع لها ممرات خلاله، وتمضى للأمام، والحمل ثقيل.

بينما فاطمة تمضى إلى جواره. قسمات وجهها تنوء بحمل تعبيرات غاضبة يقشعر لها قلب الليل.. «الحق معه فى شعوره. لكن ليس إلى حد الهروب. الرحيل ليس الحل. يجب أن تقف وتقول لا. تقولها لعاشور فى وجهه وليكن ما يكون إذا كان هو فتوة السوق، المتحكم فى رجاله، ويفرض عليهم ما يشاء من إتاوات، فأنا فاطمة!! سأقول له أمام السوق وكل الناس لا. لكن حمدان يرفض هذا. يخشى منه ومن رجاله. لو أستطيع أن أبعد حمدان عن هذا الأمر!! أبعده وأقف أنا. أكيد سأوقف عاشور عند حده. لكن كيف أبعد حمدان وهو رجلى؟».

أدارت عينيها وهى تتناوشها الحيرة نحو حمدان. كانت العربة تشق طريقها وسط الطين. تصنع عجلاتها ممرات خلاله. بينما الليل ثائر، ينشر سواده عبر الطرقات من فرجة الدرب الضيق، نفذت العربة إلى اتساع الشارع الكبير، لتغوص فى أنوار الأعمدة المتراصة حرسًا لا انتهاءً له. اختلط فى حدقات العيون النور الأصفر بالظلمة السوداء، بينما أخذ الأسفلت يداعب العربة بعد عبورها الطين، فترد عجلاتها بزغاريد تفرقع وسط السكون.

مضى حمدان إلى الأمام، وقد خف المجهود الذى يبذله. غير أن الحمل ما يزال ثقيلاً.

اتجه بطرف عينه نحو فاطمة يطمئن عليها. تسير قريبًا منه بقوامها المعتدل الريان فى سكون. تفحص وجهها.. «لماذا أنت يا فاطمة من دون نساء السوق؟.. الغريب أنه طلب منى طلبه بلا خوف».. اندفعت ابتسامة باكية إلى شفتيه.. «ولماذا يخاف منك يا حمدان؟.. إنك لن تستطيع أن تقول لا. حتى لو كان المطلوب فاطمة.. هو يعرف هذا. لذلك طلب منك وبقوة»

خفض رأسه. باغته الأسفلت بحفر كادت توقعه .. عاد يرفع رأسه.. «اشرب يا حمدان. اشرب ثمن سكوتك. سألك كم تكسب فاطمة فى اليوم. دار بخلدك أن تجابهه لماذا تسأل ما دمت تأخذ إتاوتك؟ .. لكنك سكت. رأيت نفسك وأنت تفقد قدرتك حتى على التحكم فى لسانك. رأيت نفسك ولسانك يتدلى. يهمس بالجواب فى خضوع. مثل أى آخر لا يملك من أمره شيئًا. نعم يا حمدان أنت لا تملك من نفسك شيئًا، تبسم فى وجهك. ربت كتفك فى رفق. قال لك سأدفع لها ضعف ما تكسبه فى اليوم. على أن تعمل عندى. فى بيتى. تساعد امرأتى. ورأيت فمه ينفرج عن ابتسامة ممقوتة. لحظتها يا حمدان رأيت رأسه رأس ثعبان أرقط يفتح فمه لالتهامك. ليس التهامك انت. بل هى. فاطمة. يريد زوجتك يا حمدان.. أتفهم، أتثور؟ .. كل ما فعلته لحظتها أن الكتف الذى يضع يده الغليظة عليه ارتجف بشدة، وأنتبه إلى أنك ترتعد بين يديه. همس برفق لا تقلق يا حمدان ستخدم فى بيتى ساعات قليلة، وتعود إليك. ماذا قلت؟.. ولم تتكلم. صمت لسانك. شل .. لم يعد هناك حمدان. أو كان

هناك لكنه صورة باهتة أو خيال مآتة لا معنى له. ماذا فعلت يا حمدان، وماذا ستفعل، ماذا ستفعل، تكتفى بالهرب؟» صرخ رغماً عنه وجسده ينتفض: لا.

أدار وجهه هرباً من الصوت الساخر الذى يدق فى صدره، ويهز فراغ دماغه هزاً.

- مالك يا حمدان؟

انتبه لفاطمة. نظر إلى وجهها دهراً. «ترى ماذا تقولين عنى الآن؟».. نفذت نظراتها عبر تلافيف دماغه.. «يخشى عاشور.. يخشى رجاله. يظن أن وقوفنا فى السوق نبيع بضاعتنا من الخضر رهن بمشيئته.. آه لو تتركنى أواجههم».

توقفت العربة عن الهرولة مرة واحدة. صرخت عجلاتها مرة واحدة نتيجة احتكاكها الشديد بالأسفلت لتقطع شريان الصمت قبل أن تتصلب فى مكانها.

واستدار إلى امرأته تاركاً يدّى العربة. قبض على يديها .. حدق فى وجهها. رآها وهى تقف فى السوق أمام فرشها والخضر بين يديها والزبائن حولها ورجال عاشور يتحاشونها .. يقولون أن لسانها كرباج لا يرحم. زوجها سهل عنا. ويلقون عليه ما لديهم من كلمات.

حدق فى عينيها

«أنا ضعيف يا فاطمة.. ضعيف. كان يجب...!» أمسكت بكتفيه تهزهما وعينيها تغوصان فى حبتى عينيه:

- مالك يا حمدان؟

شدها بقوة ناحيته.

أوقفها إلى جانبه، وأمسك بيدها بقوة باليد الأخرى أدار العربة إلى الخلف. وقفل عائداً.

بينما النهار ينجلى

كاشفاً عن وجهه!

العكــــاز

لم يدر بنفسه إلا وهى أمامه. أو هو أمامها. وجهان متقابلان وعيون تتعانق متلهفة كالعهد بها. ترنو وتنطق بالشوق والرغبة فى التواصل أبد الدهر.

أخذ يتأملها.. يتأمل عينيها.. يتأمل لونهما العسلى الرائق الذى يزيده الابتسام تألقًا ونضارة.

فتح فمه ليتكلم.. خشى أن لا تعبر الكلمات عما يريد.

اكتفى بالغوص فى ثنايا نظراتها.

غير أنه تذكر أنها هى التى تركته. لم تخبره أنها ستتركه.. لم تشفع له العِشرة، ولم يزكيه لديها الحب.

غشيت عينيه غيمة من كدر.. «حتى إذا كانت أخبرتك أنها ستتركك وتمضى.. ماذا كان بوسعك - بعكازك هذا - أن تفعل؟»

ترقرقت دمعة ساكنة فى حدقتيه منذ دهر، مؤذنة بالنزول. خشى أن تراها وتعرف أنها سكنت حدقتيه منذ تركته. أدار وجهه عنها متلهيًا

بالحجرة من حوله.. الحجرة التى شمت ريحها من قبل مد يده اليمنى ليمسح عينيه، بينما اليسرى تمسك بالعكاز حتى لا ينزلق من تحت إبطه

الحجرة كما هى لم تتغير. السرير المبعثر الفرش الذى يفتقديدها التى طالما اهتمت به.

وكذلك الكنبة الخشبية أم صندوق التى كانت ترتب مساندها وتغطيها بالقماش الوردى السميك الذى حاكته بيديها، والمائدة الصغيرة أمامها بمفرشها الأبيض وفوقه طفاية السجائر النظيفة دائمًا، والنافذة التى استبدل زجاجها بورق كرتون سميك لحين ميسرة والصينية الألمنيوم التى تحوى القلة الفخار على أرضيتها والستارة السمنية اللون المعلقة بدوبارة مربوطة بمسمارين أعلى إطار النافذة. ثم الطبلية الخشب المسندة على الحائط وراء السرير وأخيرًا الدولاب ذى الضلف الثلاث بعد أن فقد الضلفة الرابعة.

هذا هو المكان. مكانك. ألم يوحشك؟

وأنا ... !!

عادت الدمعة تصر على النزول. جاهداً حاول منعها.

مد يده اليمنى يضغط بها عينيه ليمنع نزولها

وعاد إليها.

عيناها ما زالتا باسمتين. فيهما ذات الألق الذى طالما شده إليها. قسماتها منبسطة راضية .. لا تشعر به!!

ليس مهمًا .. المهم أنه رآها.. رآها وكفى

اتسعت شفتاه لابتسامة

«وجهك رغم تغضنه يحمل قسمات طفولية محببة» ومد يده اليمنى - كما طالما فعل من قبل - يتحسس وجهها - أحس برودة الزجاج تتخلل أصابعه

انتبه للشريط الأسود أعلى الإطار

انزلق العكاز منه

بكى!!

سكة أبوزيد

رفع وجهًا متعبًا نحوه. تلاقت عيناه بعينيه الباسمتين ارتمت نظراته على عسل الأحداق، وهو يجمع الكلمات بالكاد:

- هات كتاب الحساب

غير أنه رآه يبتسم. ابتسامته تتسع

- لن تجد فيه شيئًا.

يحدق فيه النظر. عيناه تحملان أمواجًا من مرح صاخب هديره عال، فيهما ذات النظرات التى لا تأبه لشىء، يركز نظراته فى عينيه.

غيمة كبيرة دوامية الحركة تدور، تكسو بقية الوجه. ولا يبقى أمامه إلا العينان. يمرح عسلهما تحت ضوء الشمس صافيًا له هدير.

ليست هذه عينا ولده. يهز رأسه مرارًا. لا. إنها عيناه هو. عينا المدير «مرعى» ونظراته اللاهية.

ينتفض صارخًا: حتى البيت لا تتركنى فيه!!

ويحمل جسده مهرولاً إلى حجرة النوم.

●

ارتخت قسماته رويدًا وهو يقف أمام المرآة، محدقًا فى وجهه وعينيه، متفكرًا كيف يستخدم المرء نظراته – دون كلمات – بهذه المقدرة. كيف يتلون ويتبدل من نعومة ثعبانية، إلى خشونة ذئبية، إلى وداعة حمل، كل هذا بنظرات عينيه!!

استدار عن المرآة إلى السرير، وقد أجهده حمل جسده طويلاً. غير أنه تذكر ولده هشام الذى تركه فى الصالة منذ وقت. لم يكن وقت الاهتمام به الآن، وهو عائد من العمل، يسأله عن دروسه، لن يستطيع عمل شىء. ما جرى اليوم ليس بقليل.

عاد ناحية الباب، الكتاب الخارجى أكيد سيجد فيه مبتغاه. نادى الولد. تناوله منه. الدرس موجود. انتهى الأمر. قراءة متأنية تفتح ما استغلق من أبواب.

قرأ الشرح. عاد للسؤال. قارنه بالأمثلة الموجودة لم يصل إلى شىء. تململ فى جلسته وهو يحدق فى المسألة. كيف تستعصى على الحل؟.. إنه يؤمن إيمانًا راسخًا أن لكل مشكلة فى هذا الكون حلاً. هكذا أراد الله. ليس هناك داء إلاّ وله دواء إلاّ الموت. وليس هناك عقل عاجز وعقل ذكى. بل عقل يفكر وعقل تعطل عن التفكير. لذا فعليه أن يعاود إعمال الفكر مرة ومرات حتى يصل إلى حل.

لكن.. كيف يفكر وهو فى هذه الحالة؟

عاد إلى ولده الصغير. عادت النظرة اللاهية تلاحقه .. كز على أسنانه وهو يرى عسل العينين يراوغه وصوت المحقق يهر جدران جمجمته:

- حصرت نفسك فى طريق واحد. نسيت أن سكة أبوزيد كلها مسالك.

هز رأسه بقوة: أكره أبوزيد لهذا السبب. واستدار إلى الولد قاصداً توبيخه، غير أنه انتبه لصوت التليفزيون يخترق أذنيه:

- « هذا وتحقق السلطات فى عملية هروب المليونير...» كاد يقفز إلى التليفزيون ليحطمه.

اكتفى بإلقاء الكتاب بعيداً واتجه إلى حجرته. غير أنه تراجع، قاوم همود جسده، والنظرة اللاهية التى تلاحقه، واستدار عائداً.

أمسك الكتاب من جديد.

رأى صورة المحقق تتسل من بين السطور، بشفتين غليظتين، تتقيأ الكلمات فى وجهه.

- «الخطأ أن تقاوم ما ليس لك قدرة عليه اليد التى لا تستطيع قطعها قبلها» ، اغلق الكتاب بقوة. صرخ:

- هشام

هرول الولد إليه. قال بلهجة متحدية:

- اعطها للمدرس الخصوصى

واستدار عائداً لحجرة النوم.

علا صوت التليفزيون فى أذنيه:

- «المتهم الهارب تقدر ثروته....»

اختلط به صوت الولد:

- هو الذى أعطاها لنا

عادت النظرات اللاهية تحاصره.

●

أمسك الولد من كتفيه

حدق فى عينيه، يريد أن يعرف ما وراء هذا السؤال الذى قذفه به:

- بابا .. لماذا لا تحل المسألة؟

الولد تطل من عينيه ذات النظرات!

اشتعل جوف أبيه. الولد لا يشعر بالضيق لعجزه عن حل المسألة. كأن الأمر لا يعنيه. يرمينى أنا بالعجز!!

هب واقفًا. رأى عينى «مرعى» المدير تلاحقانه، ونظرة لاهية يغلف بها حدقتيه، تصاحبها ابتسامة صفراء تنبض بها ملامحه، وصوت خفيض إلى درجة المقت يدهمه:

- ثم نقلك إلى قسم آخر.

انتفض متخبطًا فى دهاليز مشاعره. انتبه للهواء ينسحب من رئتيه ومن الحجرة حوله. أمسك بأطرافه. رآها تفلت من يده. مرعى باقتدار يسحبها. فتح فمه محاولاً استنشاق ولو جزء منه. لم يستطع. جحظت عيناه وهما تركضان خلف النظرات اللاهية وصرخ:

- لن أصمت

- بابا .. بابا

أدار وجهه حوله

تبعثر مرعى فى الهواء

وتجمعت صورة الولد أمامه. والكتاب بيده ما يزال

قال بقوة: سأحلها.

●

دق جرس الباب.

أطلت رؤوس صغيرة من فرجته. زملاء هشام فى المدرسة بادرهم بالسؤال عن حل المسألة. قل أحدهم:

- بابا يقول إن المسألة خطأ.

خطأ!!

انتفض واقفًا. منفرج القسمات. وقد تألقت عيناه، وانزاح التعب عن جسده.

«خطأ وخطأ كبير أيضًا وإلا ما خرجت المسألة عن نطاق المألوف لتصبح هكذا، المسألة لكي تُحل ـ مهما كانت صعوبتها ـ لابد أن تكون منطقية المنهج».

سأل أحد الأولاد:

- أليس لها حل؟

اندفعت الكلمات إلى شفتيه مجاوبة:

– ما بُنى على باطل فهو باطل

سأل آخر:

– كيف؟

أطلت صورة المحقق إلى عينيه. رآه وهو يهمس له أن الموضوع كبير. ونصحه أن يسير فى سكة أبى زيد وأن يحفظ مسالكها، وأن يكتفى بحفظ التحقيق. المدير مسنود. جهة التحقيق ذاتها لا تستطيع إدانته.

قال سأذهب لرئيس الشركة

نظر المحقق إليه برثاء

طالبه برد المستندات التى سلمها له. تركه ومضى حاول إيقافه. ظلت ضحكته تتناقلها الجدران من حوله.

تنبه ليد تهزه

رأى الوجوه الصغيرة تحيط به.

– المسألة هكذا بلا حل؟ كلها خطأ؟

قال بصوت خافت:

– أكيد هناك حل. المهم أن نصل إليه

– كيف؟ ومن يصلح هذا الخطأ؟

فتح فمه ليتكلم. أبت الحروف أن تطاوعه. ضاعت المستندات التى كان بها يتكلم.

أدار عينيه فى وجوه الصغار.

رغم هذا لن أنزوى فى دهاليز الصمت

- أين الحل يا بابا.

نظر فى حبتى عينى ولده.

رأى نفسه يخرج من غرفة التحقيق. يكتب لافتة كبيرة يحكى فيها عن عمولات، وشراء مواد خام منتهية الصلاحية، وبيع قطع غيار على أنها خردة، وبيع منتجات ممتازة على أنها درجة ثانية.

غير أنهم سحبوا منه اللافتة.

اتهموه بالبله!!

وتم توجيه إنذار شديد اللهجة إليه بالتوقف عن هذا. وإلاّ!!

- بابا .. هل هناك حل؟

لمعت حدقتاه ببريق خاطف.

همس مؤكدًا: الحل أكيد موجود. المهم إصلاح الخطأ وهو يعاود الغوص فى حبتى عينى ولده.

رأى نفسه يهرول إلى رئيس الشركة. وحده سينصفه.. لم يوقفه أحد على غير العادة. قابله الرجل بسؤال محدد:

- وانت مالك؟

وفتح درج مكتبه، أخرج تقاريره السرية. كلها ضعيفة!!

أشار إلى آراء رؤسائه فى عمله.

صرخ: تزوير .. تزوير

أحاط به الأمن.

صرخ فيهم: ليس أنا. افهموا.

هزوا رؤوسًا بلا أعين ولا أفواه. ولم يأبهوا له.

أشار رئيس الشركة إليه من أعلى.

– عطفًا على أسرتك – لا عليك – سأتركك

هذه المرة

هتف هشام: بابا .. كيف نصل إلى الحل؟

صرخ: صور المستندات معى

تبسم رئيس الشركة ساخرًا: صور بلا أصول

ربىّ أولادك أحسن

عاد يصرخ:

– هذه السرقات من القسم الذى أعمل به

أنا المسئول عنها

قال الآخر ساخرًا

– نقلناك من القسم

– هذا ليس حلاً

- أنت مشاكس، ولدينا الحل لأمثالك.

صرخ:

- لا

وهب واقفًا. هو يعرف الحل الذى يقصدوه. لكن هل يُكبل الكلمات ويعتقل الحروف على شفتيه؟

عاد إلى الأولاد.

عيناه مغسولتان بماء الشرود

ارتفعت بعض الأصوات:

- هل لديك حل؟

احتوت حدقتاه العيون من حوله

«وماذا لدّى لأفعله ولست أملك دليلاً على ما أقول..»

ارتفع صوت هشام:

- بابا .. تكلم

أدار وجهه إليه.

غزت شفتيه ابتسامة هزيلة وهو يتذكر التفاف زملاء المصنع حوله.

- ستصمت رغمًا عنك

- لديهم الحلول العاجلة لأمثالك

- لن تتكلم بعد اليوم

هب واقفًا

- يا أولاد

سأتكلم

ومد يديه إليهم

أحاطهم بها

وظللتهم نظراته.

انطـــلاق

دار

صالح حول الدكتور عدة دورات. أخذ يتساءل عما حدا به إلى جلب كل هذه الأجهزة معه. تفحصه جيدًا محاولاً الوصول إلى غرضه مما يفعل. الرجل أشيب الشعر. باهت النظرات. محنى الظهر قليلاً. يحمل فوق أرنبة أنفه نظارة، تطل من خلفها عينان صغيرتان شديدتا الهدوء.

حول رجال ينادونه الدكتور كامل.

أشار كامل إلى مساعديه برفع الأغطية عن جسد صالح المسجى على سريره غائبًا عما حوله. تقدم أحدهم. انزعج صالح فى مكانه - أعلى - أيما انزعاج وهو يراه يتقدم من الجسد ويرفع الغطاء.. اضطربت الروح. أكيد يريدون إعادته إلى ذلك العالم القديم بكل ما فيه. جال بخاطره ما حدث له منذ زمن لا يدرى كم، عندما خدمه طبيب التخدير خدمة عمره، وحقنه بكمية من المخدر نقلته من عالم إلى آخر وجد فيه مبتغاه. المشكلة أنه ما يزال مرتبطًا بالجسد على نحو ما.

حدق فى الدكتور كامل من أعلى.

«وهذا يريد أن يزيد. ارتباطى بالجسد أكثر. يقيدنى بدلاً من تحريرى من الثقل الذى أنوء به. أنت يا دكتور.. لا أريد الرجوع.. أتسمع؟».

لم ينتبه إليه أحد!!

أخذ الدكتور يضبط أجهزته، والعيون من حوله تحملق بانبهار وترقب .. أشار الدكتور أن اقتربوا . فزع صالح.

«أنت لا تدرى ماذا جرى عندما علمت زوجتى بما حدث.

استغلت مواهبها فى البكاء والعويل، وقول ما لذ وطاب من الكلمات التى تمزق القلوب. بعدها حين عادت إلى البيت، تقبلت المواساة من عشيقها فى حجرة النوم. أتعرف أننى....»

أشار الدكتور إلى الجسد المسجى أمامه.

- إذا استطعنا أن نتعامل مع المخ. نحفزه ببعض المواد المساعدة لكى يستعيد نشاطه، ويبدأ فى إصدار أوامره إلى بقية الأعضاء بالعودة إلى العمل الطبيعى.. نكون قد نجحنا.

اضطرب صالح أكثر... «نجحتم فى ماذا؟.. انتظر يا دكتور

« سأقول لك شيئًا لتقتنع بما أريد. عندما حقننى «الرجل بحقنة التخدير سكنت الحركة. تلاحمت الجفون «وهدأ النبض و...»

همس أحد الواقفين

- أى مواد مساعدة يا دكتور؟

أجاب كامل:

- تلك المواد التى يجب أن يفرزها الجسد لتحافظ على الوعى والإدراك وحسن أداء الأعضاء لعملها. الحاكم أو المسيطر على هذا هو المخ. بمساعدة هذه المواد يواصل عمله ويصدر إشاراته كما كان من قبل.

«نعم هدأ النبض إلى أقصى مدى له. إلا أننى اكتشفت رغم هذا أننى أرى .. أرى أبعد من حدود رؤية العين. وأذهب خفيفًا سهلاً إلى حيث أريد.»

قال ثان:

- إذن .. نحن نحاول الآن حث مراكز الإدراك والوعى لتعود إلى عملها.

هز كامل رأسه علامة الإيجاب، وهو مشغول بعمله.

«أذهب إلى السماء.. أراها صافية الزرقة. ينغمس فيها نور دافق .. ينبع من فوهة.. لا أعرف من أين، ولا إلى أين ولا حتى كيف يكون بهذه الكيفية من الصفاء. أقترب منه .. أحاول النفاذ من هذه الفوهة لأنغمس فى النور .. لا أستطيع. أظل كلما اقتربت أبتعد. وحين أبتعد - من شوقى - أحاول الاقتراب من جديد».

لحظات مرت وكامل ما يزال حول أجهزته يدور، يحدق محققًا فى الإشارات الناتجة أمامه فى صمت مشوب بتوتر ظاهر.. يرقب جهاز لينتقل إلى آخر. غير مصدق لما يرى.

ارتفع صوت يسأل:

- ما الأمر يا دكتور؟

هز رأسه ولم يرد. ازدادت حيرة صالح لحيرة الدكتور

«سأعود أم لا .. وإذا عدت لماذا، ولمن؟»

مد كامل يده متحسسًا الجسد الساكن فى ريبة.. معقول هذا؟..

الجسد الساكن له إرادة، ويفرض إرادته أيضًا!!

عاد إلى أجهزته يعيد الضبط والمراقبة.. أما أنا لست كامل.. وأما هذه الأجهزة تهرج.

«أعود لماذا، ولمن .. لحياة لم يعد فيها للروح مكان - لزملاء لم يعد أحدهم يذكرنى، وإذا ذكرنى فإنه يذكر عيوبى. لا حسناتى. يفرح لأننى بعدت عن طريقه أم أعود إلى زوجة سمحت لعشيقها أن يشاركها الفراش للترفيه والتسرية عنها.. أم أعود إلى أولاد نسوا ما كان.. كأننى لم أكن ذات يوم والدهم و.... و ....! أعود لمن، ولماذا؟ .. أبدًا .. لن أعود»

رفع كامل رأسه عن أجهزته متمتمًا:

- مستحيل .. اختار الموت.

قال من بجواره: ـ كيف؟

رد كامل وهو لا يصدق ما يرى:

- رغم المواد التى حقنته بها، إلا أنه لم يبد استجابة حدق صالح فى الحجرة التى يرقد فيها جسده قليلاً.. استدار إلى أجساد نورانية لطيفة، تطير حوله فى يسر، وهى تبتسم له ابتسامات تتفتح لها ينابيع النشوة فى وجدانه.

ابتسم لها سعيدًا بصفاء وروحانية الأحاسيس التى تمر به معها..

عاد صوت يسأل:

- والعمل يا دكتور؟

هز كامل رأسه يائسًا

- وماذا نفعل إذا كان يرفض العودة؟

إهتز صالح طربًا.

كان الفضاء رحبًا

فسيحًا

انطلق إليه فى يسر وصفاء

دون عائق ما.

العـودة إلـى الداخـل

سادت الظلمة المكان.

رجع بظهره إلى مسند مقعده.. التزم الصمت وشعور بالراحة يغمره. انقطع النور فى الوقت المناسب.. كيف لحظات مواجهة لا يريدها.. خاصة اليوم!

أدار نظراته فيما حوله. الكازينو الذى كان مليئًا بالحركة والضجيج هدأ.. غاص فى لجة سكون وديع كأنه لم يكن يموج بالحركة منذ لحظات .. حتى رجاء زوجته شعر بها تبتعد.. تغيب .. كأنما الظلمة طائر خرافى أخذها بعيدًا عنه بمسافات.

فرد ساقيه مسترخيًا.. شاعرًا أنه وسط جزيرة.. وحده لا يطوله إنسان. وانتبه لنفسه يرفع وجهه لأعلى.. يرمق السماء بنظرات مستغرقة .. يتأمل مجموعات النجوم ببريقها الفضى وسط الظلمة الموحية من حولها.. اندفع من سراديب دماغه سؤال:

– منذ متى لم ترفع رأسك لأعلى؟

رغم المباغتة تبسم. ولم يفكر فى الجواب

اخترقت أذنيه أصوات عمال الكازينو.. يروحون ويجيئون.. يحاولون السيطرة على هذه الحالة سريعًا. صاحبهم صوت رجاء.. نفذ من حصار الظلمة متسللاً إليه.. هاتفًا باسمه مرتين.

حدق باتجاهها ولم ينطق.

كان ممتنًا للظلمة لأنها أوقفت سيل كلمات لا تنتهى.. كلمات أصبحت مقررًا عليه.. لا بد أن يحفظه. حتى لو كانت اللحظات الآن. والمكان هذا الكازينو الذى شهد قديمًا أحلى ذكرياته معها، والذى جاء بها إليه بعد أن ذهب إليها فى عملها، ليصالحها بعد خصام دام عدة أيام، أصبح البيت فيها لا يطاق، هو فى جانب، وهى فى آخر، والأولاد بينهما حائرون.

عاد صوتها ينفذ من بين تراكمات الظلام هاتفًا باسمه. قال رغم أنفه:

- نعم

همست بصوت دافىء:

- أنا لست خائفة

أدار وجهه عنها محتميًا بالظلمة . رجاء التى تكره الظلام، تقول الآن إنها ليست خائفة!!

قال بصوت محايد: الحمد لله

علا صوتها متسائلا: لم تسألنى لم

أخذ نفسًا حانقًا : لم؟

رق صوتها: لأننى معك

اتسعت عيناه. البحر نفسه لا يتقلب بهذه السرعة. كانت الظلمة قد شفّت، وبدأ يراها هيكلاً بلا ملامح، وإن كان له حدود وأبعاد. عادت تهمس:

- أننى أراك الآن أفضل.

اعتدل فى جلسته محدقًا نحوها. محاولاً التيقن أنها هى التى تتكلم، وأن الكلمات التى تنطقها كلمات جادة. أراد أن يسألها عن سر هذا التحول. خشى أن يخرجها من هذه اللحظات التى تعيشها!

سمعها تكمل: هل تعرف فيم أفكر الآن؟

ومدت يدها تتحسس يده، وهى تواصل همسها:

- أن أعتذر إليك.. سامحنى

كاد أن يهب من مقعده واقفًا.. أين الخلافات .. أين الصوت الحانق.. أين الكلمات ذات الحروف الملتهبة.

«أنا مثلك فى هذا البيت.. لى مرتبى وكيانى و... و... إلخ»

عادت يدها تتحسس يده. ضغطت عليها

- على فكرة .. أنا مسامحاك

اعتدل فى مكانه. كان للصمت رائحة تستحق أن ينعم بها.. صوتها الهادىء الآن رائحته أحلى.

كانت الأصوات حولهما، والأقدام تسعى لتحاول تشغيل المولد الاحتياطى، بينما صراخ المدير لا يتوقف، ونداءات العمال لا تنتهى. لم تبال بهم.

انطلق صوتها يشق حجب الظلام نافذًا إليه

- لم أشعر أننى تخلصت من الضغوط

مثل الآن.

كانت تتكلم بصوت رنينه دافىء.. نبضاته هادئة.. صافية.. نبضات امرأة تكتنز داخلها مشاعر وأحاسيس أرق وأحلى مما هو ظاهر للعيان.

همس متسائلاً:

- أين كان كل هذا؟

لم لا يطفو على السطح لننعم به؟

جاوبه صوتها مترفقًا

- عودتنا إلى داخلنا من حين إلى حين ضرورة.

تجاوز دفقة المشاعر التى ألمت به بالكاد.. فتح فمه هامسًا: عودتنا إلى داخلنا كل الوقت ضرورة.

عادت تتكلم.

رآها وسط الظلمة كيانًا رقيقًا.. يتدفق من خلاياه نور سحرى، ضغط يدها برفق. وسمع نفسه يقول كلامًا ظن أنه نسيه من زمن. رأى

نفسه للمرة الأولى منذ دهور يسميها «حبيبتى»، ينطق الكلمة وهو يعى معناها.. يقصده .. يعيش معناه.

هى أيضًا تدفقت كلماتها حلوة العبارات

وجاء النور

مرة واحدة رآه يقتحم المكان.. رآه حريقًا يلتهم المرئيات بلا إنذار.. ينفض الصفاء بقسوة.. يزيل الهدوء. ويدفع الكائنات للضجيج.

أغلق عينيه برهة.. كأنما يحتج على ضيف ثقيل.

عاد يفتح عينيه.

أول ما رآه كان وجهها.

تبسمت عيناها بخفر.

فتحت فمها تريد الكلام. أشار إليها بالصمت.

نادى على الجرسون. سألته:

- ماذا تريد؟

قال جادًا:

- سأطلب منه إطفاء النور من جديد!

المنحـــدر

رأيت عينيها على ضوء اللمبـة السهارى تتسعان .. وتدق صدرها بيدها.. بينما الليل هناك خلف الأبواب مقعى يرقب الطرق والبيوت.

كـان الضوء الأصفـر ضـئيـلاً.. يبين بالكاد ملامح الأشـيـاء.. رأيت الأريكة فى الصدارة كطلل ينعى ساكنيه.. بينما السكون يمتد محدقًا بالأشياء والأنفاس فى خمول. وباب حجرتى مغلق يصدنى عن العودة.

علا الفزع حروفًا على شفتيها:

– إلى أين؟

وهى تحدق فى الحقيبة الجلدية الصغيرة فى يدى.. والتى بها بعض ملابسى. تسمرت مكانى لا أملك إلا عينين مصلوبتين على مساحة وجهها. سيصحو فارس. أكيد سيصحو وسأنال عقابى.

توسلت إليها عيناى أن تتركنى أمضى. اقتربت منى بوجهها النحيل الشاحب تحت اللمبة الباهتة الاصفرار. رأيته مكسوًا ببرودة ذهول جامح.. أمسكت بيدها. اليد السمراء ترتعد.. قالت بحروف متقطعة:

- وهانت .. عليك .. أمك؟

ألقيت رأسى على صدرها وبكيت.

انتبهت لعينى فارس - عينى البومة - ترقبانى على البعد.

●

الليل يحيط بالمكان. يفترش أرضه وسماءه.. يخترق بكثافة سواده خلاياه وأحشاءه.

بينما

فى الردهة الواسعة نجلس.. نتابع الصور الملونة فى التليفزيون. أشرت بيدى فرحًا:

- حارتنا فى التليفزيون!

حدقت عينا أمى فى الشاشة الصغيرة:

- معقول؟

ثم أشاحت بيدها غير مصدقة:

- شتان بين الصورة والأصل

انتبهت لوجه فارس يتحدث إلى المذيعة عن الحارة. عن ارتباطه بأهلها و... هتفت:

- انظرى

تنقلت نظراتها بين التليفزيون ووجه فارس المجاور لها. الملامح واحدة. لكن!!

قالت باسمة:

– فارس يتلون أمام الناس

ضحكنا.. عبس فاروق

شدتنى طريقته فى العبوس. قسمات وجهه كلها تتكرمش. من أعلى شعره حتى أسفل ذقنه. حتى أذنيه يتوهجان احمرارًا تركته إلى أمى. كيف رضيت به زوجًا؟

عدت إليه

انه يتفنن فى أساليب عقابنا. تهّمه المظاهر .. يبذل المستحيل ليراه الناس فى أحسن صورة .. يصرف ببذخ خارجًا. أما فى الداخل فيده مغلولة. الأكثر من هذا أنه يجالس نفسه فتبدو عيناه جاحظتين. يتطاير منهما الشرر .. فإذا رأى أحدًا انفرجت أساريره وكسا الهدوء قسماته.. وحملت شفتاه ابتسامة ممطوطة باتساع صدغيه. ورقّت كلماته حتى حاكت النسيم!

فإذا عاد ليخلو بنفسه رجع لما كان عليه.

تسأله أمى ما به.

يجابهها بعينيه الجاحظتين، مطلقًا لسانه بما لديه عن هذا وذاك، وتمنياته السوداء للجميع.

تسمع أمى وتصرف نظرها عنه. تدعو لنا بالستر وتحذرنا منه. تقول إن حاسة السمع عنده عالية وأن له أذنى وطواط!

أسألها لائمًا: لماذا؟

تفهم ما أعنى.. تضحك ضحكتها الرحبة الطيبة وهى تهمس:

- يا بنى .. نصيب .. أصبر.

●

مدت يدًا نحيلة إلى ظهرى تربته حينما أخبرتها أنه حرمنى من المصروف. كان الوجه الأسمر يدارى بالكاد عن عينى تعبيرًا مرهقًا. رسمت بسمة بمشقة وهى تهمس:

- سأعطيك أنا

ألقيت بنفسى بين ذراعيها.. كانت الحيرة تسكن عينى.. لماذا يفعل هذا؟ .. الغريب أنه يعاقبنا وهويبتسم .. والأغرب أنه يبدو للجيران وأهل الحارة زوج أم مثالى.. لا يشكو منه أحد من أبناء زوجه. ولا يصدر عنهم أى تذمر .. رفعت وجهى نحو أمى: إلى متى؟

همست وهى تدارى وجهها عنى:

- فارس قلل مصروف البيت أيضًا

استطار الشرر من عينى: لماذا؟

جاءنى صوتها واهنًا:

- لأننى رأيتك تترك البيت ولم أبلغه

شعرت بثقل وجبال فوق صدرى. قلت بفم:

- لماذا ؟ أدركت ما أعنى

ردت بصوت خافت:

- فرضوه علىّ .. قالوا رجل يسترك.. ويربى أولادك.

سمعت صوت الباب يفتح بحذر.. يطل منه وجه ينقب فى الوجوه وما داخل الصدور.. حاملاً عينى بومة وأذنى وطواط.

أدرت وجهى عنه.

●

لأننى لم أسدد المصروفات طلب ناظر المدرسة ولىّ أمرى. قلت له إننى فى الصف الأول الثانوى. وإن عمرى ستة عشر عامًا. وإننى سأعمل وأتكفل بأمرى. وإننى أرجوه أن يتنازل عن هذا الشرط. ويمنحنى الفرصة للتصرف.

أشاح الرجل بوجهه ولم يرد.

تذكرت أخى محمد الذى يعمل فى مصنع فارس.. ألجأ إليه.. أكيد لن يتركنى.

لكن محمد مرتبه لا يكفيه.. فارس يعطيه بالكاد ما يكفيه.. والعمل!!؟

حملت كلمات الناظر لأمى.

نادت فارسًا.. طلبت منه الذهاب للمدرسة..

تشاغل عنها بجريدة فى يده

رأيتها تنفعل . ربما لأول مرة منذ زمن:

- الا تسمع؟

ربت محمد كتفها:

- لا فائدة. أنا سأقوم بهذا

كتمت ما استعر بجوفى من نيران. حدقت نحوه وبصقت نظرات الحنق عليه.

كانت الجريدة حاجزًا بينى وبينه. لمحت عنوان الصفحة الأولى الأحمر العريض الحروف والاهتمام برعاية محدودى الدخل والفقراء»

اتسعت شفتى لبسمة هادئة

واستدرت عنه

●

جلس بين الضيوف فى الصالة الواسعة مرتديًا ما فى الكون من تواضع وسماحة.. حاملاً بين عينيه طيبة حنون تفيض بالدفء.. ونظراته هادئة يوجهها للجميع دون فرق.

أخذ يتحدث عن اتساع بيتنا لعلاقات الحب والمودة. خاصة بيننا نحن الأبناء وبينه.

أخذت أرقبه معجبًا بقدرته على رص الكلمات.. قام من مقعده - وهو ما يزال ينمق الجمل - واحتضن كفى موسعًا من طول بسمته.

رفعت وجهى إليه أريد الصراخ فى وجهه.

- لست أبًا لنا .. ولن تكون

غير أن الحروف لم تطاوعنى. أصابنى الغثيان.. هرولت إلى الحمّام.. التقيت بصورتى فى المرآة.. وصدمت.

رأيت عينى خابيتين.. بريقهما منطفئ.. والتهدلات حول الجفون. بينما الشفة السفلى تتدلى نحو ذقنى!

رفعت صوتى بالصراخ

رأيت المرأة تشيح بوجهها عنى قائلة بضيق:

- ظاهرة صوتية ما تلبث أن تخبو:

حدقت فيها محاولاً استيعاب الكلمات ـ أنا ظاهرة صوتية!!.. ارتفع صوتى: كلا

أخرجت لسانها معابثة وقالت بصوت ساخر

- أتحداك أن تفعل شيئًا

قلت بحدة: ـ أفعل متى أردت

تعالت ضحكتها باستهزاء: ـ وطبعًا لا تريد

غاظنى الرد

وطريقة نطقها له

مددت يدًا حانقة إلى الصابونة على الحوض.. بكل قوة قذفتها نحوها.

انتبهت فورًا إلى ما جرى.

رأيت وجهى يتناثر .. حاولت أن ألمه..

لم أستطع

قلت لنفسى وأنا أرقب نثار الزجاج والشروخ الظاهرة لعينى.

- كيف فعلت هذا .. بنفسى؟!!

●

كانت حدقتا عينيه تلمعان بلمعة غريبة ذات بريق .. والسماء ملبدة بغيوم تحيط بكائنات الأرض .. بينما الوجوه من حولنا قسمات مجهدة، وعيون منهكة، وأجساد تسير بقوة الدفع الذاتى.. وراديو من مقهى قريب يلقى للمارة والقاعدين بآخر الأنباء..

«هذا وقد تقرر زيادة الاهتمام بمحدودى الدخل و ....!»

سرنا وفارس معنا فى طريقنا صامتين.

كنت أفكر محاولاً الوصول إلى ما يريده بالضبط..

لمعة العينين .. الشرود .. الصمت .. والبسمة التى تندفع من حين إلى حين إلى شفتيه.

تذكرت شجارى معه بالأمس.. خرجت من الحمام بعد أن رأيت وجهى يتناثر.. اندفعت إليه وسط الصالة وأمام الضيوف: - لن يطول الصمت أبد الدهر تدخل الضيوف وحضر الجيران وعرف الجميع الحقيقة رغم كل ما بذله من جهد.

عدت أنظر إليه بطرف عينى

عينا البومة يحيطان بمن حوله. يرقب ويسجل بينما أذنا الوطواط تلتقطان خفقات القلوب. الغريب أنه يلتزم الصمت هذه الأيام، ومنذ

شجاري معه. ينظر فقط. ويوجه أذنيه وتشرد عيناه. ويبتسم بين لحظة وأخرى. ابتسامة ضيقة تختفي على مهل.

ولم يبدر منه رد الفعل الذى كنا نتوقعه. لكنه تكلم اليوم

قال بهدوء وهو يوجه نظراته إلى الجميع.

– سنرحل إلى حارة جديدة

وبيت جديد

نظرت إليه أمى متشككة. غير أنها كعادتها تحملت وصمتت. جهزنا حاجاتنا وسرنا معه.

اجتاز بنا الحارة مع بداية الشروق.. انطلقت الشمس خلفنا تصعد متمهلة سلم السماء. بينما الأرض هاجعة ما تزال.

انتبهت إلى أنه يمضى بنا إلى الأرض الفضاء. وراء الحارة. حيث الخلاء الممتد. والصمت الخانق والمنحدر الصعب الذى يحذر أهل الحارة مجرد الاقتراب منه. فزعت نظراتى. ماذا يريدنا؟ استدرت ناحيته.. يحمل بسمته الضيقة ويمضى. تركته إلى محمد.. صامت يحمل ما به كأنه معصوب العينين يسير.

حاولت مضغ الصمت مثله، وطمأنت نفسى أن فارس على كل حال يسير معنا، وأكيد لن يفكر فى ضرر نفسه. غير أن النيران كانت تأكل خلاياى. اتجهت لأمى. رأيت عينيها وقرأت ما فيهما. عرفت شعورها الحقيقى الذى تحرص على إخفائه. لكن لماذا تخفيه وإلى متى؟

صرخت فيها: أخطأت بطول صمتك.

وتوقفت فى مكانى.

نظرت إلى الخلاء الممتد والمنحدر الصعب الذى يبدو أمامنا مهيبًا طويلاً لا تكاد بالعين تطول منتهاه. حدقت فى فارس بقوة بينما أمى وأخى إلى جوارى.

قلت بلا خوف

لن ننزل معك هذا المنحدر!!

دوىّ

(١)

كمدير وقـور وقف أمـام البـاب. البـسـمـة معلقـة على شـفـتيـه. بذلته سوداء أنيقة. يده اليمنى فى جيب بنطاله، وذقنه إلى أعلى كسهم مسدد إلى العيون المتراصة على المكاتب ترقبه.

لاحظ بسرور وهو يهبط بعينيه من أعلى السقف، مارًا بلوحة «وقل اعـملوا ..» إلى المقـاعـد المتـراصـة أمـامـه، أن كل منهـا تشـاغل بالأوراق والحسابات.

تنقلت نظراته فى تراخٍ، من فـاطمـة، إلى السـيـد، فـسـعـيـد ، حتى استقرت على المكتب الأخير المواجه للباب مباشرة. ارتفعت قليلاً لتتصبّ بقـوة على صـالح رئيس المكتب، الذى ظل جـالسًا بذات هدوئه. نظـارته ينعكس عليهـا الضوء. فلا يملك الناظر إليه تحديد اتجاه نظرته. قلمه فى يده والأوراق أمـامـه، وصلعتـه ممتـدة بطول رأسـه، عـاكسـة للضـوء الساقط عليها، ولا شىء آخر هناك، إلا صمت حذر يفترش المكان.

تبسمت فاطمة .. اعتدل السيد .. علا صوت سعيد :

- صباح الخير يا عزيز بك.

هز رأسه محييا بذات الوقار، ونقل نظراته لتواجه صالحًا الذى وضع قلمه بروِيّة على مكتبه، وقابل النظرات بمثلها، وهو يضم شفتيه إلى بعضهما - كأنه يستعد للتقبيل - وأرسل بصقة طائرة بلا صوت، بلا رزاز عبر الهواء إليه، بعدها ظل غارقًا فى هدوئه.

لا يعرف أحد أين تتجه نظراته بالضبط!

●

(٢)

دخل الساعى يحمل قهوة الصباح . تكلف عزيز الابتسام، وهو يحدق فيه بطرف عينه، باحثًا بين قسماته عما تطويه الصدور. رأى الرجل يبتسم. اضطربت نظراته. كارثة يا عزيز لو انتشر الخبر. ستصبح أضحوكة إن لم تأخذ حقك بيدك.

- القهوة يا بك.

أيكون هذا الرجل قادمًا ليتشفى فيك؟

- شكرًا يا عبده

يراك ويقرأ على صفحة وجهك ما يريد، ويذهب ليبلغهم بما رآه!!.. لا.. رفع رأسه لأعلى تاركًا الأوراق التى يتشاغل بها .. واغتصب ابتسامة علقها على شفتيه، واجهه بها.

- تسلم يديك يا عبده

استدار الرجل بكليته إليه متسع العينين.. هذه أول مرة يقول له فيها هذا. هو الرجل الشامخ الأنف، القليل الكلمات، الذى يقول شكرًا بالكاد. ما الذى جرى له؟

ابتسم عبده ردًا على مجاملة البك. حدق عزيز فى وجهه.. لم تعجبه البسمة.. الأمر هكذا ليس صدفة يا عزيز.. عبده يقصد السخرية. يتحدى. تبعثرت القيم وضاعت التقاليد.. سنرى يا صالح. صرخ:

- ما زلت واقفًا يا عبده؟.. أخرج

ارتبك الرجل وهو يضع الفنجان مكانه. هرول خارجًا وهو يحاول فهم سبب تغير البك، الذى هب من مكانه واقفًا .. يجب أن أرد وبقوة.. سنرى يا صالح.

غير أن الصورة المواجهة له على الجدار شدته.. حدق فى الجبل هناك. صعدت عيناه من السفح إلى القمة. تابعت القمر عاليًا أقصى اليمين. كان نوره الفضى الهادىء يحتوى قافلة من الجمال مارة بجوار السفح. ارتحلت نظراته مرات ما بين السفح والقمة. فجأة ترك الجبل واستدار إلى مكتبه. ضرب بقبضة يده على سطحه.. ماذا لو لاعبته بنفس أسلوبه وبادئته بالهجوم؟ أكيد سأخرسه.. أذهله .. أشعره أننى أمتلك نفس أسلحته. وأستطيع الرد بأسلوبه.. وأننى عطفًا عليه وتقليلاً من شأنه لن أستخدم سلطاتى كمدير معه.

لمعت حدقتا عينيه.. عاد إلى قمة الجبل تواقًا لاعتلائها بنظراته.. غدا سترى يا صالح !!

●

(٣)

مضى إلى مكتب المحاسبة من جديد، وهو جاهز تمامًا لمجابهة صالح، يده فى جيب بنطاله، ونظراته إلى أعلى، بينما انكمشت الابتسامة، وحل محلها تحفز وانتظار .. تقدم إلى الداخل.

ـ صباح الخير

اندفعت موجة من الأصوات ترد عليه.. هبطت نظراته قليلاً.. بلا قصد اتجهت إلى صالح.. تلقى منه بصقة طائرة تجاهه بلا رزاز، وارتج الكون به. احمرَّت أذناه واندلعت ألسنة النيران من جوفه، وشعر بدوار حاد. غير أنه بذل أقصى طاقته ليخفى ما به. رمى بنظراته أرضًا. حدق فى البلاط .. مربعاته متسخة.. شقوقه متخمة بالتراب.

لن أشعركم بلذة الشماتة. رفع وجهه لأعلى. خرجت ابتسامة صفراء من بين شدقيه:

– المكتب متسخ جدًا .. كيف تجلسون فيه؟

تساءلت فاطمة مستنكرة: ـ أى مكتب؟

تشجع السيد: هذه مشكلة السعاة.. ليس لديهم وقت لهذا !!

اندفع سعيد: أول مرة سيادتك تنظر للأرض.

أما صالح فقد خلع نظارته فى هدوء. مسح عدساتها وهو يرفع عينيه ناظرًا بلا حواجز إلى عينى عزيز. تلاقت النظرات .. تشابكت .. احتدم التشابك. صرخت نظرات عزيز...

«كسول .. ساذج .. لا تعرف أن القنص هو شريعة الحياة .. اخرج من الكهف لترى وتفهم وتقتنص. ولا تظل عائمًا فوق ركود الكلمات البالية»

لتنتفض النظرات فى عينى صالح

«بل أنت الذى .. وبطرق ملتوية لا أجيدها .. تسلقت الجبل.. هذا حسن على كل حال. ليكون لسقوطك دوى»

وعادت النظارة إلى مكانها. ارتفع صوت صالح: ـ بماذا تأمر؟

أدار عزيز وجهه فى المكاتب حانقًا .. المقاعد تتكلم وتناقش وترد عليه!!.. سنرى يا صالح.

صرخ: تعالى إلى مكتبى لأقول لك.

واستدار خارجًا.

فكر أن يقف قليلاً بجوار الباب يستطلع الآراء. خشى أن يراه أحد.. مضى رغمًا عنه.

●

(٤)

عاد ثائر العينين إلى مكتبه.. أخذ يدق بقبضة يده على خشبه، وهو

يحدق شاردًا فى الجبل، وقمته التى تطاول القمر فى سماه. فجأة هب من مقعده. أنزل الصورة لأسفل. وقف إلى جوارها، ارتفعت قامته عن قمة الجبل كثيرًا.

ارتخت عضلات وجهه وعاد إلى مقعده. أمسك بورقة بيضاء وقلمًا، وأخذ يحدد المعركة، والهدف منها، وكيفية إدارتها، ويدرس أسلوب العدو، وتكتيكه، وتصرفه المتوقع.

أكيد صالح سيأتى الآن.. سيحاول أن يفعلها هنا. وحده. واثقًا أننى لن أتكلم. التصرف المقابل لكى أفسد عليه الأمر، هو أن أطلب مجموعة من موظفى الأقسام الأخرى. إذا فعلها أمامهم سيرونه، وأحصل على شهود عدول، أنتقم منه بهم، وإذا لم يفعلها فسأفعلها أنا وأرد له الصاع صاعين.

خرجت آهة ارتياح من أعماقه. استنشق الهواء بعمق، ومد ساقيه مسترخيًا أسفل مكتبه، وهو يحمل سماعة الهاتف ويطلب من بعض الموظفين أهل الثقة الحضور.

لن تفلت هذه المرة يا صالح.. وإذا كنت قد رضيت بالعيش فى كهفك، وإلقاء الكلمات الجوفاء، والتصرفات الخائبة، فسوف ترى ماذا سأفعل بك. سوف ترى.

●

انتبه لدقات على الباب.

اعتدل فى جلسته وهو يرمق قمة الجبل من أعلى.

دخل الموظفون. حدد لكل منهم مجلسه، بحيث يقع صالح تحت أعينهم من زوايا مختلفة، بعدها اتسعت ابتسامته.. الأمور هكذا تسير كما خطط لها .. الحرب متى ما درست جوانبها، وأبعادها، والظروف التى تحيط بها، وتجهزت لها، فإنك لا محالة تقتنص النصر اقتناصًا.

علت على الباب دقات يعرفها جيدًا.

فرد صدره، وتجهز للمواجهة القادمة حسب الخطة الموضوعة. بمجرد ظهور وجه العدو، سيضم فمه ويرسلها طائرة بلا رزاز إليه. ولنرى ماذا سيفعل. علا صوته مرحًا:

- تعالى يا صالح

فتح الباب. تلاقت الأعين. انطلقت البصقة فورًا. فى لا زمن تقريبًا. إن كان هناك لا زمن. لدرجة أن عزيزًا لم يكن قد تمكن من إغلاق شفتيه بعد. انتفض قلبه وشعر بالأرض تنشق من تحته لتهوى به. استغاث بالعيون من حوله. كلها متجهة لصالح. بحث عن نظرة استنكار. كلمة رفض. لم يجد!! محال ألا يشعر أحدهم على الأقل بما حدث.. حدق فى الوجوه .. العيون .. الشفاه. ماذا جرى لك يا عزيز، حقيقة هذه أم حلم؟ .. لا.. صرخت عيناه. إنها مؤامرة!

انتفض من مكانه متسع الأحداق ،جاف الحلق، متصلب الأطراف.. انتبه للجبل أمامه يعلو الأرض. رآه يتمدد ووجد نفسه قزمًا تحت سفحه.. بينما الأفواه من حوله تنطلق منها فى وقت واحد، عبر الهواء، وبلا صوت وبلا رزاز الطلقات. تراجع إلى الخلف.. ممتقع الوجه.. رأى الصورة بجواره.. مد يده، وألقاها أرضًا، وأخذ يدق بحذائه عليها، وينظر إلى صالح بتشفى!!

طبـــق منصـــور

فى تلك المتاهة.. حيث لا بداية ولا انتهاء.. أختزل عمرى برؤية وجه عبدون كل صباح. أراه وملء القلب نبض كاره له، ورغمًا عنى ينفرج فمى وتتحرك شفاهى..

- صباح الفل يا باشا

وأستدير عنه إلى رف الشيشة فى صالة المزاج. أنظف القلوب الزجاجية، وكل قلب أمسكه أشعر به مرهقًا، يتساءل عن وقت الخلاص .. أتركهم إلى الأرض لأكنسها. تستجير من كثرة الخطى عليها. أذهب إلى المقاعد فى صالة الثقافة. تحكى لى عن طول سأمها من هؤلاء الذين يجالسونها رغمًا عنها، ولا تملك إلا الإذعان.

يهل الزبائن بعدها مع إطلاله شمس الصباح، من خلف زجاج الأبواب الأمامية لتفترش الواجهة، وأنا أرش نشارة الخشب يعلو صوت عبدون: منصور .. يا زفت.

أترك ما فى يدى وأندفع نحوهم. وتبدأ المتاهة فى الدوران!

حتى إذا جاء الليل أذهب إلى مرقدى بالكاد. أحمل جسدى وأمضى إلى أرض الصاوى. أطمئن على العشة وأنها موجودة لا تزال. أرفع قطعة القماش المهترئة التى تحل محل الباب وأدخل أدير عينى حولى وقبل أن يرتد إلىّ طرفى أكون قد غفوت.

تجىء إلىّ أمى أحيانًا متدثرة بظلمة الليل ومعها العشاء. توقظنى وتطلب منى أن أهتدى وأعود معها. أرجع إلى مدرستى وأنتبه لنفسى. تستريح نظراتى على قسمات وجهها الصبوح رغم هرولة السنين بها، أتأملها وهى ترجونى أن أسمع كلام زوجها. فجأة أسألها لماذا تزوجته. تضحك ضحكتها الحانية محاولة أن تدارى بها مشاعرها.. تقول ما قالته من قبل مرارًا:-

- ألحّ علىّ.. قال لن يربى أولاد أخى المتوفى إلا أنا أسأل بانفعال يعصف بسكينتى:-

- وأنا!!؟

تضم جسدى المكدود إلى صدرها:-

- أنت ولدى. لكن لا تترك المدرسة. ارضيه من أجلى أتذكر قسمات وجهه الغليظة وهو كلما رآنى يزجرنى. أشيح بيدى بقوة: لن يحدث. وبين يديها أغمض عينى. أذهب إلى دنيا أبى، أبثه ما بى وأستمع له. أسمع منه ما يرطب جفاف حلقى.

●

تنقسم مقهى عبدون إلى صالات ثلاث، لكل منها خصوصيتها وروادها.

الأولى : صالحة المزاج العالى لتناول المشروبات والتدخين والمسامرة.

الثانية : صالة الألعاب لممارسة ألعاب التسلية والفيديو.

الثالثة : صالة الثقافة وفيها تليفزيون متصل بطبق هوائى (دش) لاستقبال القنوات الفضائية.

يجلس عبدون متوسطًا الثلاثة بعينين كعينى البومة واسعتين ينظر ويحسب ويراقب ويعقد الصفقات ويقوم بالسمسرة وما إليها لا شيء يقف فى طريقه. المهم أن يدخل جيبه المال!

اليوم فجعت لسماعى أنه اشترى أرض الصاوى. تلك الأرض التى بنيت فوقها العشة. ضاق صدرى بوساوسه، وانتظرت بين لحظة وأخرى أن يناديني ليأمرنى بالرحيل عنها. أخذت أتحرك بين المقاعد وأنا أرمق الباب، والمكتب العريض، والجسد الضخم، والرأس الكبيرة وهى لا تهدأ. وكلما أدار رأسه ناحيتى تلهيت بشيء إلى أن فعلها ونادانى وأيقنت بالهلاك.

تحركت نحوه. وقفت بجوار المكتب. أمرنى أن أخلع ملابس العمل.. زادت ارتجافة قلبى وأظلمت أكثر أفكارى.

انفرجت الرأس الكبيرة عن ابتسامة غليظة من شفاه أغلظ. سألنى:

– ما تظننى فاعل بك؟

تقافزت على طرف لسانى الإجابة:

– شرًا.. فأنت أخ لئيم وابن أخ لئيم

غير أنني أحجمت. ظللت ناظرًا إليه. أرقب عينيه. فيهما لؤم ثعلب لا أمان له. لا أستطيع تثبيت عيني عليهما طويلاً. أشعر كأن نارًا تبزغ منهما، وحين يصرخ فى وجهى أرتعد. لا أعرف لِم. يلعب بالكلمات والناس كيف يشاء. مغامر لا يقف له شىء. يبدى لك الرقة والعطف متى احتاج إليك، وترى وجهه الغليظ يسيل حنانًا. فإذا انتهت حاجته ركلك فى عنف.

تبسمت عيناى. ما دام سأل هكذا فأكيد له عندى حاجة .. قلت بسرعة: ما تأمر به مطاع.

حدجنى بنظراته المتربصة، خفضت عينى، سمعته يقول:

- لن أطردك من العشة

صمت قليلاً وهو يتابع آثار كلماته على وجهى ثم أكمل: بشرط .. عيناه حادتان. شعلتان من مكرٍ تنبثقان منهما. كلما حاولت أن أجابههما فشلت. هتف:

ألا تسألنى ما هو؟

قلت متكلفًا بالطاعة : ما هو؟

ثبت لهب نظراته على حدقتى : أن تفعل ما أريد.

تبسمت متعجبًا. وهل هذا شرط؟.. زوج أمى لن أعود إليه.

بخله وقسوته فوق كل احتمال. ثم إنه يسب أمى أمامى وهو يعرف أن هذا يغيظنى. يحرقنى الأكثر من هذا أنه يجبرنى أن أناديه

بابا. وأخيرًا المدرسة. لقد تركتها وانتهى الأمر.

سألت بود: وهل أستطيع مخالفتك؟

تبسمت شفتاه الغليظتان بفخر. قال

– أتعرف الأفلام الأجنبية وخاصة أفلام الفضاء والأطباق الطائرة؟ لم أفهم شيئًا . غير أننى قلت: ـ أعرف

قال: ـ هذه الأفلام تتحدث عن أطباق طائرة قادمة من بعيد هبطت فى أمريكا وروسيا وبعض البلاد الأخرى.

اندفع لسانى متعجلاً: لكن... هذا خيال علمى.

اندلعت النيران من عينيه وعلا صوته: ـ ماذا تقول؟

التفت بعض الزبائن. ارتجفت جفونى بشدة. والتزمت الصمت انتظر قليلاً وسأل وهو يقرّب وجهه من أذنى: ماذا تقصد؟

– لم يحدث؟

●

هززت رأسى مشفقًا على نفسى من معارضته:

– قرأت أن هذا خيال. لم يحدث

مد يده إلى رسغى. اليد غليظة. لحمها الطرى أحاط بيدى. ضغط عليها. قال وهو يثبت نظراته على حدقتى:

– لكنى أريده يحدث

وهو يزيد ضغطه بقوة. قلت مطاوعًا ويدى تؤلمنى:

- كما تريد.

أطلقتنى يده. أمسكت بأذنى. اندفع صوته الغليظ هامسًا:

- وسيحدث معك فى أرض الصاوى

- كيف!!؟

- الأرض بائرة. أريدها أن تكون حديث الناس

حتى إذا عرضتها للبيع سارعوا بشرائها.

- لا أفهم

التصقت شفتاه بأذنى أكثر. سال صوته فى أذنى سيلاً

- انصت جيدًا. إذا قلت أن طبقًا طائرًا هبط إليك فى أرض الصاوى وأنك تحدثت مع رجال الفضاء ماذا سيحدث؟

ازدادت حيرتى. شد أذنى إلى قرب فمه أكثر:

- سيتحدث الناس عن الأمر وعن أرض الصاوى

همست معترضًا: لكنهم سيخافون منها. فكيف تبيعها؟

أطلق أذنى وانتصبت قامته الغليظة وضرب صدره بيده قائلاً:

- هذه لعبتى المهم دورك أنت.

تساءلت بقلق: وما دورى؟

ومضت عيناه: سأقول لك

وشد أذنى من جديد.

●

جاءت أمى ليلاً كعادتها. كنت أرقبها من وراء السور، وسط الظلمة وهى تبحث عنى. رأيتها تجلس على الأرض بجلبابها الأسود الطويل وتنتظر. كانت تبكى. دموعها شعرت بها على البعد رغم أنى لم أرها. فكرت أن أهرول إليها وآخذها بين أحضانى، لولا أن الخطة التى وضعها عبدون ليس فيها أحضان. المسافة بين البيت والعشة، لا أعرف كيف تقطعها ليلاً - هى التى تخاف الظلام - وسط الظلمة، وكيف تنفلت منه ولا تشعره بغيابها.

كان الليل قد مضى بعضه، وهى مكانها تحادث نفسها وترجو الله أن أكون بخير، حين بدأت عملى. أشعلت فى الظلمة مصابيح حمراء وخضراء وزرقاء متعاقبة ومتحدة، ملأت بها الأرض ووجهتها للسماء، وأطفأتها مرة واحدة كأنما صعدت لأعلى واختفت.

وهبطت من مكانى. مشيت أجّر ساقى إليها. كان الفزع قد صهرها.. ارتمت بين ذراعّى تستغيث بى، وتصرخ متسائلة عما جرى للدنيا. حاولت قدر جهدى أن أشعرها أننى مرهق، مكدود، مهزوز الأعصاب، وهى تنظر إلىّ وقد تشاغلت عن نفسها بأمرى. راوغتها قليلاً ثم بدأت أحكى ما لدىّ:

- طبق طائر يا أمى

ضربت على صدرها، ورأيت عينيها تجحظان

- طبق !! .. طائر!!

صمتت برهة تلتقط أنفاسها ثم أكملت: ماذا يعنى؟

أخذت أشرح لها وأفسر، كيف أن سكان السماء قد أتوا إلىّ فى طبق طائر هبط فى أرض الصاوى، وأنهم أخذونى معهم، وقضيت الليل بصحبتهم، ورأيت عالمًا لا مثيل له، وأننى لولاها ولولا خوفها علىّ وبكاؤها من أجلى لظللت معهم.

كانت تفتح فمها وعيناها متسعتين.. أنظر إليها وقد اعتادت عينانا الظلمة فأرى الذعر تعاريجًا وتقسيمات على وجهها، تحاول أن تفهم. تهضم ما يقال، وأنا سادر فى شرحى لكى تستوعب جيدًا.

وحين تيقنت من هذا، أبديت لها رغبتى فى النوم.

حاولت أن تبقى حتى آكل الطعام الذى أتت به. رفضت .. رجتنى أن تظل إلى جوارى لتطمئن علىّ.. أيضًا رفضت تحركت من مكانها وهى تبكى وتشكو إلى الله ما بى، أخذت أرقب شرودها وهى تمضى.

عذرًا يا أمى. سامحينى. لكنها ضرورة أن أستخدمك كمذياع متنقل.

وأغمضت عينى منبسط الأسارير!

●

جاء الصاوى إلىّ. عيناه تضجان بلهفة، تصرخان برغبة لمعرفة ما حدث، ترك حماره على الطريق وجلس إلى جانبى على باب العشة.

انتشى صدرى لمرآة يتودد إلىّ. هو المعروف عنه بخله حتى فى محادثة الناس. سألنى عن الصحة. قلت بخير. عزم علىّ أن أتعشى عنده. فى داره. كدت أسأله أنا عن صحته وهل هو بكامل عقله، غير أننى صمت. قلت أوافق وبعدها أرى.

ومضيت معه.

أجلسنى فى القاعة الكبيرة التى تتوسط الدار، وجاء أهل بيته - زوجته وبناته - يرحبن بى. رأيتهن ينظرن إلىَّ ويفحصن وجهى وهن - يا سبحان الله - يبذلن وسعهن للتعبير عن فرحهن بوجودى وعيونهن تفضح عن شوقهن لمعرفة ما جرى. أخيرًا اندفعت الأم تسألنى أن أحكى. طابت لىّ اللعبة. تمنعت قليلاً، ثم استجبت لهن. قلت: - كانوا اثنين - شفتهم. واقفين أمام بالون بألوان البالون له باب صغير على حجمهم. شكلهم لعب أطفال. يتحركون. اقتربت منهم أشوف حكايتهم، ومن الذى جاء بهم، وما مناسبة هذه البالونة فى أرض أبويا الصاوى. سمعت صوت بيسأل: إنت منصور؟ بصيت حولى. من يتكلم؟.. بسم الله. الله أكبر.. درت حول نفسى. عاد السؤال. انتبهت أنه قادم من أحدهم. فرحت. يا حلاوة ياولاد. لعبة وفيها تسجيل. أكيد له زر يتحرك منه أو زنبرك يدور به. اقتربت أتحسس جسده أصابتنى رعدة هزت جسدى .. أخذت أنتفض. إنت منصور؟.. نعم. ابن وهيبة؟ .. ابنها. تعالى معانا. ريك والحق خفت. حاولت أجرى - أتحرك من مكانى. أصرخ. أستغيث. لم أستطع كأن شخصًا ما مسيطر على دماغى. مقيدنى. وعاد الصوت تانى: لا تخف يا منصور نحن أصدقاء. اطلع. ورأيتنى أطلع معهم

البالون. أجلس فيه بلا خوف ومن خلاله أرى القرية. أتفرج عليها من أعلى. أشوف الزرع والغيطان والبيوت و...!

وصمتُّ. دفعتنى إحداهن بكوعها لأكمل، حثتنى الثانية.. حتى عم الصاوى نفسه. تظاهرت بالإرهاق وأنا ألاعبهن وأشغلهن كما أوصانى عبدون.

أراد الصاوى يأن يدارى لهفته. لم يستطع. أخذ يضرب كفًا بكف وهو يحوقل ويسبح الله ويلعن نفسه على تفريطه فى هذه الأرض المباركة وفى ذات الوقت يطلب من بناته الإسراع بإحضار الطعام لآكل وأشرب الشاى وأكمل ما بدأت.

غير أننى لم أكمل حرفًا على ما قلت متحججًا بأن سكان السماء يريدون هذا!

●

قرر عبدون أن يستغل اهتمام الناس بالموضوع، ويحوّل صالة المزاج إلى صالة الأطباق الطائرة!

اشتعلت رأسى غيظًا وأنا أراه وأسمع كلماته لرواد المقهى - تقديرًا لمنصور ولما ظهر من اهتمام سكان السماء به. هو المسكين الذى ترك داره ومدرسته، وسكن العشة فى الأرض المباركة.

وما دامت السماء تهتم به فواجب أهل الأرض أن يعطوه الرعاية والاهتمام وأبسط رعاية له أن نسمعه.

لذا

قررت افتتاح صالة الأطباق الطائرة ليحكى منصور ما لديه
من حكايات ومغامرات مع رجال السماء والطبق الطائر.
وذلك نظير مبلغ رمزى جنيه واحد بالمشروب.

كلمته همسًا وأنا لا أتمالك أعصابى. حدقت عيناه الضيقة فى وجهى. وجهه الغليظ تصلبت قسماته وهو يشد أذنى

- رزق وساقه الله إلينا. نضيعه

ابتعدت عنه بالكاد وأنا أهمس

- لا . لكن كيف؟

عاد يشد أذنى ليصب فيها كلماته.

●

حضر العمدة ليلة افتتاح صالة الأطباق الطائرة، بهره النور والأضواء، والورود، وكاميرا الفيديو، والتليفزيون على باب المقهى الذى رأى فيه صورته، وانبسط كثيرًا لرؤياها بهذه الحلاوة أمام جماهير القرية، التى رحبت به وهتفت له.

وقام بقص الشريط إيذانًا بالافتتاح. صوّره الفيديو وتعالت الزغاريد والهتافات تحييه وتدعو له. بعدها تقدم وسط اللافتات المعلقة هنا وهناك إلى داخل القاعة. جلس فى الصف الأول ومعه كبار رجال القرية يليهم الأهالى. بينما وضعت منصة عالية فى مواجهتهم عليها ميكروفون لأجلس عليها وأحكى ما لدىّ.

•

جلست قبالتهم جميعًا. حشد هائل يتقدمهم العمدة مهيبًا شامخًا بجسده القصير المتماسك تعلوه رأس صلعاء من أعلى بينما حوافيها مرصعة بشعرات شائبة بياضها براق، بينما تغطى عينيه نظارة طبية زجاجها شفاف، ويُدخل بين شفتيه ويُخرج مبسم السيجارة العاجى الخاص به، وعلى جسده بذلة كحلى مودرن رائعة المنظر. يجاوره عبدون بجسده الضخم ووجهه الغليظ ونظراته التى تحمل لؤم ثعلب لا أمان له.

المفروض أن أتكلم. أبدأ. أقول. أحكى ما لدىّ. أخذت أستعيد ما حفظته من عبدون ودعوت الله بالستر.. وانطلقت .. بدأت أصف المركبة وناس الفضاء والرحلة التى عشتها معهم. فجأة ارتفعت أصوات بأن جماعة من الصحفيين حضروا لتغطية الخبر. أرسلت نظرات مرعوية إلى عبدون .. تشاغل عنى بحواراته الهامسة مع العمدة.

أيقنت بالهلاك.

●

ـ كارثة توشك أن تحل.

فى العاصمة طلبوا رؤيتى والتحدث معى والكشف علىّ...

شعرت بقرب انكشاف الأمر وضياع كل شىء

الذى يرعبنى أكثر هو أننى بدأت أدمن ما أنا فيه. لذة ما بعدها لذة أن ينصبّ الاهتمام علىّ. يسارع الجميع لسماعى والتحدث معى أنا الذى كنت من أيام قلائل ليس أكثر من طريد يبحث عن مأوى بعيدًا عن زوج أمه.

أصابني الهم والخوف. الكذب عمره قصير وأكيد أهل العاصمة لن تنطلى عليهم الحيلة.

ضحك عبدون من مخاوفى هذه. قال وهو يشيح بيده

- شركة كبرى اشترت الأرض لاستغلالها دعائيًا

أتفهم هذا؟

رآني فاتحًا فمي، محدقًا بعيني. فح نظراته في حدقتى

- اسمع. انسى كل شيء عدا إنك قابلت الطبق الطائر

أبعدت عيني عن عينيه:

- سيكتشفون كذبي

أمسك بمعصمي يده الغليظة ضغطته:

- ومن قال إنك تكذب؟ تلك هي الحقيقة وذلك هو ما رأيت. أنت فاهم؟

فضحت عيني ما أعانيه. أطلق صرخة هزت الأرض من تحتى وعادت عينه تطلق نارها:

- منصور. اقسم أمامى أنك رأيت الطبق

فتحت فمي . لقنت لساني الكلمات فأقسم

عاد يشد أذني ثانية: لن أفهّمك ثانية

عليك الاعتماد على نفسك

●

فى العاصمة رأيت طعمًا آخر للاهتمام. أحاديث صحفية. مجلات تليفزيون مواعيد واختبارات وحكايات وأحلام يصعب أن تصدق. فكرة رائعة همس بها أحدهم إلىّ أن أكتب قصتى وأبيعها للجرائد ووكالات الأنباء والتليفزيون والسينما.

رفضت مؤقتًا خوفًا من أى شيء غير متوقع قد يحدث. غير أن ما أثلج صدرى أن من فكر فى تكذيب كلامى وجد له ألف مهاجم يهاجمونه ويؤكدون ما أقول. الأكثر من هذا أنهم كانوا فخورين بأن الطبق اختار بلدنا دونًا عن أقطار الكون ليهبط فيها!!

●

نجاح رائع لم أتوقعه فى أكثر أحلامى إشراقًا.

لجنة من خبراء الفضاء الغربيين جاءت من أجلى. طلبونى بالاسم. ذهبت إليهم . جلست وسط كاميرات تصور من زوايا مختلفة، وأجهزة قياس، ورجال يرقبون ويسجلون وأسئلة تتوالى وفحوص تتم.

قال أحد العلماء: قول منصور مطابق ويضيف لما عندنا

ضحكت فى أعماقى. كدت أسأله:

- هل فعلاً هبط عندهم طبق طائر، ورآه بنفسه؟

غير أننى قلت لنفسى الطبق الطائر حقيقة، وما عداه لا قيمة له.

ولم أبال بأمى وهى تتساءل:

- طبق !! .. طائر!! .. ماذا يعنى؟

●

لاستمرار البحث طلبوا سفرى لأمريكا.

مـلأت الفـرحـة صـدرى. سـأغـزو بلد الدولار بحكايتى. البلد التى تصدّر الحكايات والقصص، ويصدقها العالم، ستسمعنى أنا.. انتشـر الخبـر فى وسائل الإعلام. انهالت علىّ العروض التجارية.. إنتاج صابون باسمى. عطور. ومـلابس. عرضت بعض الشركات السينمائية الكبرى أن تشترى قصة حياتى

أجّلت كل شىء لحين عودتى من أمريكا!!

●

جاء عـبدون أخيرًا. سـمع بسـفـرى إلى أمـريكا بلد الدولار فـجاءنى يسعى. رأيته يقف أمـامى. وجهه بغلظته وأصداغه المكتزة، حدقت فى عينيه.. فقدتا بريقهما. لم يعد فيهمـا نيران ولا رماد وشفتاه الغليظتان اللتـان يتـرسب الكلام من زواياهمـا... تعـجبت لنفـسى.. كيف اختلفت رؤيتى له. فتح فمه ليتكلم، أدرت وجهى عن رائحته. هنأنى بالنجاح الذى هو من صنعه. بشـرنى بأنه سيسـافر مـعى. حـدقت فى عـينيـه. ظللت محدقًا. رمى بنظراته إلى الأرض. ضحكت منه. أخذت مساحة الضحكة تتسع وأنا أتركه وأمضى لأكمل التحضير للسفر.

عنكبوته

وقف ياسين وسط الطريق. أخذ يحاول تحديد هوية تلك الضجة على البعد. هل هى صراخ أم زغاريد.

عيناه امتدتا عبر الظلمة إلى الأمام. أذناه تربصتا بالأصوات القادمة. فجأة.. أشاح بيده فى ضيق وواصل السير. ما له هو بهذا كله؟.. صحيح أنه يأتى من نهاية الشارع، وصحيح أيضًا أن فى نهاية هذا الشارع مسكنه. لكننا الآن فى هوة الليل! وميزة الليل أنه يفرّغ الشوارع من محتوياتها .. يمسح عنها الأتربة. يزيل عنها الأصوات الصدئة والأبدان المترهلة. فما الذى جرى؟

مضى إلى الأمام.

هؤلاء الأشقياء، لو يصمتون!

لا شىء يدمر خلايا الهدوء مثل سرطان الضجيج.

توقف مكانه ثانية. أعجبه هذا التعبير. تبسم له منتشيًا.. يا سلام. الواحد حينما يكون مبسوطًا يقول كلمات قيمّة، خاصة فى فسحة الليل.

حينما يترك الحانة ويسير فى الطريق. يرى نفسه وسط الظلمة المتفردة والسكون المطبق ملِكًا بحق. سيدًا للكون.. يحدق فى المحال المغلقة والبيوت الغافية بشىء من السرور. لاشىء إلا أنت والطريق والسماء!. أنت والوجود وحدكما تقول له وتسمع منه. نعم تسمع منه فالوجود يتكلم. يرى ويشعر ويعيش معك الحوار كما تعيش معه. المهم أن تكون لديك حاسة الاستقبال له. رفع رأسه مزهوًا. حلوة حاسة الاستقبال هذه. عاد يكمل السير. إلا أنه تذكر.

المهم بعد هذا أن تعود إلى البيت فلا تقابل العنكبوتة!

ولا تفكر أن تقابلها. الوقوع بين مخالبها مميت. الأفضل أن تتركها فى ملكوت النوم. لا تدرى بك. مهم جدًا ألا تدرى بك. وإلا!! اقتربت الأصوات المتزاحمة. التقطت عيناه على البعد صور أشباح تتحرك فى الظلمة.

- سار من هنا

من هناك

- لن نتركه

- لن نتركها معه

توقف ياسين يحدق النظر فيهم. الوجوه اتضحت. أصواتهم جلتها له. جيرانه فى البيت. فكر أن ينادى عليهم. يسألهم ما الأمر. أشاح بيده «باكر صباحًا» استداروا عنه إلى زقاق جانبى.. عادت الرغبة تراوده.. «مهم جدًا أن تكون ملمًا بما حولك. تعرف كيف تسير الأمور».. مد قدمه

ليهرول خلفهم. عادت القدم للخلف. «ولماذا تهرول؟ دع الأشياء تسير كما تريد».

تبسم للفكرة. رفع وجهه إلى السماء. صفحتها صافية يهيم فيها ضوء بدر متوار خلف السحاب. نجومها قليلة وإن كانت كقطع الثلج وهى تتأرجح فى الكأس. تبسمت عيناه وهو يرى صفحة السماء كأسًا كونيًا، تترقرق على سطحها قطع الثلج المتلألئة.

فجأة اهتز فى مكانه بشدة. ارتدت عيناه بقوة إلى الأرض. شعر بصدمة عنيفة فى كتفه، ورأى شبحًا على البعد يهرول نحو بيت جانبى مظلم المدخل ويختفى فيه.

توازن بمعجزة وهو يسب ويلعن. همّ أن يدخل وراءه البيت ليضربه. غير أن فكرة طرأت له. وقف يبحثها أولاً.

« لِم يجرى هذا الرجل هكذا؟»

مزق أواصر فكره صوت مباغت يهتف به.

- أهلاً ياسين. أخيرًا جئت؟

التفت مذعورًا.. رآهم عائدين

- ألا تعلم ما حدث؟

- ما أخبار الحانة الليلة؟

- المرأة تستغفلنا.. لن نتركها

أصواتهم زاعقة.. تجلب له الصداع. أدار رأسه عنهم.

لا يعلمون أن هناك حرمة لليل.. أصوات نشاز. غريبة عن جو هذا السكون.

أشاح بيده ومضى عنهم متوغلاً فى الظلمة. غير أنه توقف بعد حين. امرأة تستغفلهم؟ كيف؟

نفذت إلى شفتيه ابتسامة ساخرة.

يبحثون عن رجل! ويتهمون امرأة! ما الأمر؟

قطب جبينه .. ضيّق عينيه.. امرأة ورجل فى هذا الوقت؟

إعتدلت أساريره.. أكيد جميلة. تستحق المغامرة. نفذ البدر من براثن السحاب. بدا أمام عينيه طبقًا يحمل المشهيات والمزة.. عاد يقطب جبينه. لكن من هى؟.. اتجهت نظراته للبيت. لن يقول له إلا الرجل المختبئ بالداخل. عاد إلى الخلف متجهًا ناحية البيت. توغل فى الظلمة. أشعل عود ثقاب. تكونت مظلة من ضوء أحمر خافت أمامه، رأى من خلالها جسدًا يرتجف فى الركن أسفل السلم. انفرجت شفتاه عن ابتسامة عطف .. همس بفرح.

- وجدتك

ارتعد الآخر.. ظن أن وراءه آخرين فوقف مكانه يرتعد

- لم ألمسها. كانت نزوة. درس. توبة والله

عاد ياسين يشعل عودًا من الثقاب وهو يحدّق فيه. لو كانت معى الزجاجة لأعطيتك منها كأسين. اقترب منه تكور الآخر حول نفسه.

- توبه .. صدقنى .. والله لم ألمسها

وياسين يقترب. تلك اللحظة فى حياتك نادرة. من أصدق اللحظات.. لو تناولت فى هذا الموقف كأسين!!

صار أمامه تمامًا. أمسك بيده. اليد ترتعد. اللسان لا يتوقف عن الاعتذار. همس ياسين: لا تخف وجره إلى الأمام

سار الرجل معه. تمنى ياسين أن يسأله مباشرة من هى. غير أنه يعرف أن الآخر لن يبوح بسهولة. لذا فالأفضل أن يجره فى الكلام حتى يثق به.

ابتسم لأفكاره الرائعة. أروع ما فيه أن ذهنه يصفو حينما يكون مبسوطًا. قال بهدوء.

- كيف عرفتها؟

تململ الرجل فى مكانه. ينظر إليه مرعوبًا. لا يدرى بماذا يرد عليه .. يحل الظلام بالمكان. يعود ياسين لإشعال عود جديد. يبحث بعينيه عن ورقة على الأرض ليشعلها. الرجل لا يرد. يعاود سؤاله: كيف عرفتها؟

عينا الرجل متسعتان. حدقتاه مصلوبتان على الوجه الباهت أمامه .. ما الذى يجرى لو دفعه وجرى؟ قد يكون الباقون وراءه. أرسلوه للانتقام. يلتقط ياسين ورقة من على السلم المجاور يتشاغل بإشعالها.. الرجل أعصابه لن تتحمل أسئلة الآن.. ما الذى يجرى لو تركته يمضى الآن على أن أفهم منه الأمر فيما بعد؟ ... يربت ظهره برفق.. يهمس له

- انتظر قليلاً

يمد يده بالورقة المشتعلة ويسير هو قدمًا إلى الخارج .. يرقب الطريق بهدوء حذر. كانت طبقات الظلام قد بدأت تتحل .. بشائر نهار رمادى اللون تصبغ الكون، بينما سكون مطبق يلف الأمكنة. أشار إليه بالخروج. وقف الرجل أمامه عيناه تحملان دهشة وحيرة لما يجرى. مد ياسين يده مسلمًا

- شد عليها. همس له.

- أنت رجل عظيم

وطار إلى الشارع الكبير.

عاد ياسين سعيدًا بحسن أدائه. فجأة عاد يتوقف وهو يدق رأسه براحة يده.. لم أعرف عنوانه أو كيف أقابله!!

وإمتلأ صدره بالحنق. ضاعت منه فرصة لا تضيع.

أكمل السير متجهمًا.. بدا لعينيه باب البيت على البعد.. كانت اللمبة الصغيرة مضاءة على غير العادة. ترسل نورًا باهتًا مثل وجه عواطف زوجته. تقدم إلى الأمام. عاد وتوقف.. فرصة ذهبية ضاعت منك يا ياسين. كنت الوحيد الذى سيعرف كل شىء. أكمل السير مشيحًا بيده. الأمر ليس مهمًا لهذه الدرجة.. تقدم إلى السلم. صعد الدرجات على مهل وهو يدعو ألا تشعر به العنكبوتة. غير أنه انتبه أن باب الشقة مفتوح .. ضاقت عيناه.. أكيد العنكبوتة أيقظها الصراخ. أرادت أن تنتظرنى. تلقانى عند الباب. هذه المرة لن أصمت!

تقدم إلى الداخل بحماس.. ستقف لى أمام الباب. تسألنى أين كنت إلى الآن.. ستقول لى هذا البيت ليس لوكاندة. ومثل كل يوم تحبطنى بخيوط الهوان وتقول لى إذا كنت رجلاً وتحس عد من حيث جئت. لحظتها سأدفعها بكلتا يدى. اخرسى يا عنكبوتة. لى خيوط شرورات. وأتجه إلى حجرتى. إذا زادت فالويل لها. دلف من الباب.. كانت الردهة مضاءة وهى هناك عيناها حمراوان وشعرها مهوش فوق رأسها وخدودها المتورمة مكسوة بسيل دموع. بينما بضع نسوة حولها يمددن الكلمات فى استمتاع.

دق قلبه فى عنف.. الأولاد.. ماذا جرى لهم؟

سارعت إحداهن بالكلام

– ضبطنا لصًا يحاول سرقة شقتكم. و.....

شعر بالدماء تضغط جمجمته .. لص!! ... الناس يطاردونه!! .. تستغفلهم!! و... عاد يتجه بنظرات ساهمة إليها كأنما يراها للمرة الأولى. العنكبوتة!! .. بتمعن أدار عينيه فى ملامحها .. عينيها.. شعرها.. خديها .. فمها

انسل إلى أذنيه همس إحداهن لصاحبتها

– ألم أقل لك أنه سكير، لن يعى ما كان؟

استدار إليها. همّ بالكلام. تذكر الرجل ومساعدته له. أغرق فى الضحك.. همس له أنت رجل عظيم.. اتسعت مساحة الضحكة. علا رنينها. سلم عليه بحرارة. علا الضحك أكثر. أخذ يضرب كفًا بكف.

استدار خارجًا إلى الطريق. كان الصمت يلف الأمكنة، بينما الأبواب والنوافذ مغلقة، وإن كان النهار قد افترش الكون بقوة. رفع رأسه لأعلى.. بكى!!

ثمـــن الكشـف

كانت تجلس على الباب فتاة حسناء. تجلس إلى مكتبها الصغير الأنيق إلى يمين الداخل. تلبس معطفًا أبيض فوق رداء كحلى اللون، زرقته صافية، يتسق تمامًا ووجهها الأبيض ذى العينين الكحيلتين اللتين تحملان جبالاً من عبوس وتحفظ، كأنها تضن بجمالها على المكان ورواده، وفمها الدقيق ذى الكلمات القليلة الواضحة الحروف التى تقابلك بها، فلا تسمح لك إلا بإبراز نقودك على الفور. هذا بالإضافة إلى صورة لامعة السطح من النوع المصقول، تعكس الضوء الساقط عليها، فلا تتبين إلا بعض أجزائها، وبعد حين يتضح أنها إعلان دواء تنتجه إحدى الشركات.

تجلس الفتاة إلى يمين الداخل وعيناها تضخان نظراتهما الحادة، كأنها تريد تفتيشه قبل أن تسمح له أن يقترب من الصالة الخفيفة الضوء، التى يتصدرها حوض متوسط الحجم، به بضع سمكات ملونة تدور حول نفسها بلا ملل، وتنساب موسيقى يملّ الزبائن - الذين ارتادوا المكان مرات والذين يرتادونه للمرة الأولى - سماعها. يدخل الزبون

فيرى أمامه طاقم أنتريه بنى اللون، يزيده عتمة الضوء الأصفر الهزيل الذى يصنع جوًا كلاسيكيًا يظل الزبون يتجرعه حتى يحين دوره ويدخل للطبيب، الذى قيل لى عنه أنه شاطر جدًا، يداه فيهما الشفاء، يسمعك ويحنو عليك، ويتفحص جسدك باهتمام، ويكتب لك الدواء، ولا يضن عليك بعدها بالمشورة، بعد أسبوع أو عشرة أيام وبدون مقابل، وعادة بعد هذه الاستشارة - هكذا قالوا لى - يذهب المرض تمامًا. اذهب إليه وسترى النتيجة. قلت بحيرة.

– لكن ثمن الكشف شديد الغلاء

قالوا: يا راجل .. المهم الصحة

حزمت أمرى وتوكلت على الله، وقررت التمهيد والتحضير للذهاب إليه. حادثت الزملاء فى العمل، شرحت لهم الأمر، واتفقنا على عمل جمعية بيننا، أقبضها أولاً، وآتى إليه.

جلست بالصالة ذات الجو الكلاسيكى، بجوها الأصفر الهزيل والموسيقى المقررة على الآذان، أشكر القدر الذى سهّل لى عمل الجمعية، وحنّن علّى قلوب الزملاء، وجعلنى أمسك النقود بيدى، هكذا سأدفع ثمن الكشف بالتقسيط، ولن تتأثر ميزانية البيت به.

حان دورى.

أشارت إلىّ الفتاة ذات العينين الكحيلتين، اللتين تحملان أثقالاً من عبوس وتحفظ. قمت من مكانى. تقدمت من غرفة الكشف متهيبًا الموقف، كمن يدخل عالمًا جديدًا لا يدرى عنه شيئًا.

فتحت الباب. طالعنى وجه بشوش التقاطيع، يجلس على مقعده خلف مكتبه مواجهًا للداخل، بمجرد أن فتحت الباب ارتسمت على شفتيه بسمة مزجها بحركة يده قائلاً ومكررًا:

- أهلاً وسهلاً.

ومشيرًا إلى مقعد أمام مكتبه.

تقدمت إلى الأمام وفى قلبى - ما تزال ذات الرهبة التى دخلت بها، من المكان وأيضًا من الرجل المهيب الطلعة، الذى أخذت عيناه تتفحصانى من أسفل حذائى إلى أعلى شعرة فوق رأسى، ثم ما لبث أن اكتسى وجهه بجد. لم أدر هل هو أقرب للعبوس إذ عاين ملابسى وحالى، أم هو استعداد لبدء الكشف .. تقافزت نظراتى فى المكان، من المكتبة المتوسطة إلى يمينه، المكتظة بالمراجع والكتب، بلونها البنى الفاتح، إلى الستار الرمادية المعلقة إلى يساره، بحلقاتها المعدنية، التى تنزلق على اسطوانة معدنية صفراء مثبتة فى الجدار، ثم المائدة الصغيرة التى تحمل أدواته الطبية، والصور المعلقة لبعض الأدوية وأسماء الشركات التى تنتجها، والباب الأبيض المائل إلى السكّرى المواجه لمكتبه، وأخيرًا الشباك الألوميتال الفضى الذى خلفه مباشرة.

عدت إليه وهو يستفسر: خيرًا

قلت: خيرًا بإذن الله.

وبدأت أشرح حالتى، لا أعرف لماذا لم أسترح لنظراته وهو يستمع إلىّ. كان فى عينيه نوع من انتظار متعال، أو هو إزدراء مغلف بابتسامة مرسومة على الشفاه، لا لون ولا طعم لها.

انتهيت من الكلام. علا صوته:

- لا . بسيطة.

وإمتدت يده إلى دفتر أمامه، وكتب روشتة، وهو يسأل عن الوظيفة والحالة الاجتماعية وعدد الأولاد، وما إلى هذا، بعدها مد الورقة إلىّ وهو يقوم بطريقة روتينية متحفظة ويقول:

- مع ألف سلامة. موعدك بعد أسبوع

تنقلت نظراتى حائرة، متسائلة، مستفسرة بينه وبين الستار الرمادية التى أكيد وراءها سرير، يرقد عليه المرضى للكشف والاطمئنان. وإلا فما جدوى وجود السرير هنا؟

قلت متسائلاً، وقد توارت الرهبة خلف البحيرة:

- والكشف؟

نظر إلى ساعته، ثم رفع عينيه إلىّ ببسمة ونظر نحوى من أعلى قائلاً:

- أنا خلاص كشفت.

صرخت نظراتى كيف؟

وأنا أنظر بدورى إلى الساعة متفحصًا، لم يستغرق الأمر ثلاث دقائق، ولم أرقد على السرير، أو يتنصت بسماعته، وطارت الجمعية، وبقيت الأقساط!.. إنه لم يفعل شيئًا عدا أن كتب بضعة كلمات أجنبية، كان يمكن للصيدلى أن يكتبها لو شكوت له ما لدّى.

رفعت صوتى محتجًا: هل هذا هو الكشف؟ عاد ينظر بصبر نافذ إلى ساعته، وقال بذات هدوئه المتعالى:

- جرب الدواء .. وسترى.

وأشار إلى الباب: مع السلامة.

وضغط على الزر، يستدعى مريضًا جديدًا.

خرجت رغمًا عنى. أحمل كدرى بين يدى. أفكر فى الجمعية وأقساطها الشهرية والوقت الذى أخذه الكشف، وأعدّ الزبائن فى الصالة الصفراء الضوء وأضرب ثمن الكشف فى عددهم، حاسبًا مكسبه اليومى ثم الشهرى، وهو يجلس هكذا كل مهمته أن يسلم وينظر إلى ساعته ويكتب ورقة ثم يقوم للتوديع، ويضغط الزر فقط لا غير!

نيران متأججة فى صدرى، والورقة الروشتة فى يدى جمرة تحرقنى. أكدح ثلاثين يومًا فى الشهر لأقبض، بينما هو يسلّم ويكتب ورقة ويقبض أضعاف الأضعاف لو كان كَشَف، كدح فى عمله، أشعرنى أنه يستحق!

رأيت الفتاة الكحيلة العينين، ذات النظرات التى تحمل أثقالاً من عبوس وتحفظ، بمكتبها الواقع إلى يسار الخارج، تجلس واثقة النظرات تحت الصورة الملونة التى تحمل إعلان الدواء. كانت تقبض ثمن كشف لمريضة متوسطة العمر، يبدو على وجهها الملىء بالمساحيق، وثيابها المعطرة آثار عز مقيم .. رأيت النقود فى يد الفتاة، ينعكس الضوء عليها هى بالذات دونًا عن أى شىء آخر أمامها، وهى كأنما تريد استفزازى ممسكة بها فوق المكتب على غير العادة، ولم تضعهم فى درج المكتب مباشرة، بينما يدها الأخرى تدوّن بيانات أمامها.

تقدمت نحوها سريعًا، لم أشعر ولم أفكر.. أو ربما شعرت وفكرت ولم أدر بنفسى. كنت فى حالة لا أعرف إن كانت من تأثير سحر، أو هو

تنويم مغناطيسى، أو ربما كان قدرًا يسوقنى ويقود خطواتى دون إرادة منى. تقدمت نحوها. مددت يدى بقوة. شددت النقود منها ووضعتها فى جيبى بتشفى!

هبت الفتاة وكحل عينيها يكسوه الفزع.

قلت بجرأة: فلوسى .. أخذتها.

نظرت إلىّ كأنها لا تفهم، أو تفهم ولم تستوعب ما يحدث، ولا تدرى ماذا يجب عليها أن تفعل.

أخيرًا قالت: أى فلوس، ألم تكشف؟

صرخت فيها: أى كشف

كلمتين ويوزعنى ويقول ستخف!!

كانت العيون قد انتبهت واتسعت أحداقها، والأجساد تحركت، بينما الزبونة المريضة تنظر إلينا متسعة الفم والعينين، لا تعرف هل تلومنى لأخذى نقودها، أم تصمت لأنها أعطتهم لها، وفى تلك الحالة الفتاة هى المسئولة.

خرج الطبيب على الصوت.

شق الجمع ووصل إلىّ : مالك؟

قلت بحدة: أخذت فلوسى

شرحت الفتاة ـ وكحل عينيها يرتجف ـ ما جرى. صدمته الكلمات فبهت، ثم ما لبث أن تمالك نفسه ووقف يستوعب الأمر قبل أن يقول لى:

- خلاص. لا توجد مشكلة. تعالى اكشف.

أسقط فى يدى.

الفلوس ستعاود الخروج من جيبى. قلت لنفسى لكنه سيكشف علىّ. ضحكت نفسى بأسى.. وما أدراك أنه سيكشف عليك، ولماذا لا تكون حيلة يراد بها سلب النقود؟

اندفعت قائلاً:

- خذ ورقتك . لكنّ الفلوس لا .

نظر إلى زبائنه متحيرًا وعاد إلىّ.

- الفلوس لم تعد لك. أنت هكذا تسرقها.

لم أعره انتباهًا. تحركت نحو الباب أبغى أن أخرج. فوجئت بالفتاة تدفع المكتب لتسد المدخل أمامى، وتقدم الطبيب مشمرًا أكمامه ناحيتى.

شد انتباهى أنه عريض الصدر

رياضى القوام، وبصحة جيدة!!

بينما كان المرضى حولنا.. يتفرجون

فهــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٧٧٦ / ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8509 -4

يتردد صوتك مشبعاً بالرطوبة بين الجدران . تتطاير أتربة كانت راكدة منذ زمان. بينما يقطع حد الظلمة شعاع قادم من سفر.

تدير عينيك حولك. صمت أخطبوطى الأطراف يحيط بك يحتويك .. ويعد عليك أنفاسك.

تقوم متثاقلاً نحو الباب بعد أن تعيد غلق الباب تهبط السلم الخشبى متمهلاً مستنداً على الدرابزين الكهل. مع هذا يئن من ثقلك!

تصل أخيراً إلى باب البيت. تعود بعينيك إلى الوراء هامساً بالدعاء لأبيك وأمك وتقرأ الفاتحة ترحماً عليهما .. بعدها تواجه الطريق والزحام والليل الممتد بلا حدود.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن : ١٠٠ قرش